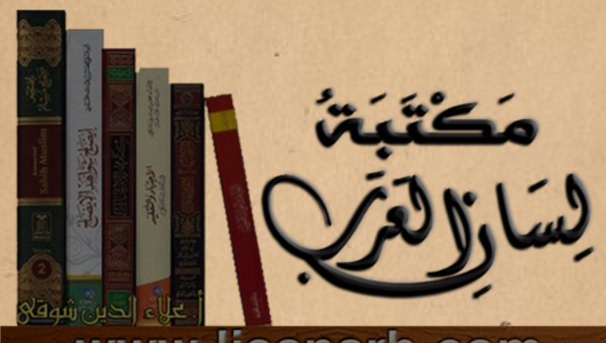
الياس ابو شبكه

روابط الفكر والروح

بين العرب والفرنجة

منشورات « دار المكشوف »

بيروت . ١٩٤٣


مكتبة
لسان العرب
أ علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

فرنسا الادبية

يكفينا ان نلقي نظرة على الجغرافيا ليتضح لنا ان فرنسا هي اعظم رجم بري في العالم ، ولذلك انتهت اليها حتماً جميع الحركات الشعبية او الفكرية التي تمخضت بها اوروبا وآسيا ، واصبحت الملتقى المحتوم لجميع المنازع الكبرى التي حركت عقول البشر .

وقد لا نخطىء اذا قلنا ان فرنسا هي ثدي العالم وان معظم الحركات الاجتماعية والسياسية والادبية رضعت من هذا الثدي . وسنقصر بحوثنا هذه على الحركة الفكرية في الشرق وعلاقة فرنسا بها . فلفرنسا الفضل الاكبر على جميع الحركات الادبية التي قامت في اوروبا اولا وفي سائر بقاع الارض اخيراً ، فان تكن فرنسا اهتدت في آداب الامم الاخرى الى غذاء قوي لها فقد ادت الى هذه الآداب خدماً لم

يكن لها غنى عنها اذ نشرتها في جميع اجواء الارض . فلولا فرنسا لم يكن لآداب الامم هـذا الذيوع العظيم في مشارق الارض ومغاربها .

في النصف الاول من القرن السابع عشر كانت باريس المركز الوحيد للمعارف الاسبانية ، فقامت طائفـة من الادباء بترجمة ما ينتجه الادباء الاسبان الى اللسان الفرنسي . وقـد يعود الفضل الى هذه الطائفة في انتشار الآداب الاسبانيـة ، حتى لنستطيع القول بانه لولا المترجمون الفرنسيون لمـا عرف سرفنتس المجد العالمي ، ولولا كورنيل وموليير لما فتحت ابواب الشهرة للمآسي والمهازل الاسبانية ، فمـا اصبح « السيد » و « دون جوان » بطلين اوروبيين الا لانهما ارتديا اللبـاس الفرنسي .

وفي القرن الثامن عشر اكتشف فولتير للمرة الاولى سحر الادب الانكليزي ونشره في أوروبا . ومنذ ذلك العهد كبر الاهتمام بأدباء الانكليز والحضارة الانكليزية في جميع انحـاء القارة الاوروبية . واذا كان ثمـة من يقول ان المذهب الرومنطيقي الفرنسي تأثر بالادب الانكليزي فمما لا شك فيـه انـه لولا العبقرية الفرنسية التي تمثلت بفولتير — اي لو لم

يكتشف فولتير شكسبير وينشره في فرنسا ثم في اوروبا — لما كان الادب الانكليزي سار سيرته هذه في العالم .

وفي منتصف القرن الثامن عشر شرع الادباء الفرنسيون يهتمون بالادب الالمـاني . وكان الاوروبيون لا يقرأون من نتاج الفكر الالماني قبل ذلك العهد الا ما له علاقة باللاهوت والشرع والفلسفة . والواقع ان الشعراء والقصاصين والمؤلفين المسرحيين الالمان كليسنغ وكلوبستوك وهردر وغوتي فيما بعد ما عُرفوا في اوروبا الا منذ العام ١٧٥٠ .

اما فيينا ، عاصمة الامبراطورية الرومانية الجرمانيـة طوال قرون ، فكانت تجذب اليهـا وتستقبل الصفوة الاوروبية التي حملت اليها نفوذ الآداب الفرنسية . ولا يزال الادب النمسوي (وهو اليوم يعيش في فترة تريث وانتقال) ممثـلا بالكتّاب والشعراء الذين عاشوا في العام ١٩٠٠ وبالذين تحدروا منهم ، اي بورّاث ذلك العهد الثقافي الذي أشرب في روحه الانطلاق والحرية المستمدين من الفكرة الفرنسية .

واما الادب البولوني الحديث فقد اجمع النقاد على القول بأنه متأثر بنفوذين حاسمين ، بنفسية بروست الواقعية ونفسية جويس الانطباعية . وليس ادل على تأثر البولونيين بفرنسا من

القول البولوني المأثور : « ان الله لا يسمع وفرنسا بعيدة . »



وقد تعود البولونيون اطلاق هـذه الصرخة كلما حلت بهم نكبة وشخصوا الى فرنسا التي أُشربوا روحها وثقافتها .

وبُعيد الحرب الكبرى الماضية ، عندما اصاب اليوغسلافيون

من مطامحهم الوطنية حتى اكتفوا ، راح الانتاج الادبي يستوحي الحماسة الوطنية على الخصوص ، وسرعان ما ظهرت بوادر شعر غنائي مدموغ بطابع برناسي ورمزي جاء في مطالع القرن من فرنسا .

وما يقال عن الادب اليوغسلافي يقال عن الادب المجري ، فرجال الفن المجريون وطلاب السيادة على الفكر المجري لا يجدون امنيتهم الا في باريس ، فبالرغم من السياسة التي افضت بالمجر الى الوقوف موقف الحليف من المانيا نجد الافكار الفرنسية تتسرب في كل مكان ، فالكتّاب الشيوخ والشبان يقرأون ادباء فرنسا ويحبونهم ، والقراء يقبلون على الكتب الفرنسية او على ترجمات هذه الكتب باللغة المجرية . وتمتاز المجر بكتّاب مختصين بالادب الفرنسي دون سواه كمرسيل بنديك الذي كان يساهم عن طريق الراديو في تحبيب اللغة الفرنسية وادباء فرنسا الى المجريين ، والبرت جيرجيه الذي يحرر في مجلة « الغرب » وقد الف كتاباً عن القصاصين الفرنسيين وآخر عن القصة الفرنسية في يومنا هذا وترجم بروست وكلوديل وجيرودو وفاليري وجيد .

والادب الاسوجي مدين بكثير لفرنسا ، لموباسان وفلوبير

وزولا وبودلير وبروست ·

وقد حاول بعض الادباء الاسوجيين في اواخر القرن التاسع عشر — وهو امجد عهد مر به الادب الاسوجي — ان يخرج بهذا الادب من ربقة الواقعية الفرنسية التي تسربت اليه من تآليف اميل زولا فلم يفلح ، وظلت هذه الواقعية ممثلة باسمين عظيمين ، بفرنز ده هيدنستام الذي رأى فيه جيله زعيماً لرومنطيقية جديدة ، وهو شاعر وقصاص من الطبقة الاولى ، وبسلمى لاجرلوف التي توفيت لثلاث سنوات خلت ، وهي أعظم ادباء أسوج على الاطلاق وفي الطليعة من ادباء العالم قاطبة · ولا نزاع في أن أقوى عناصر الادب الاسوجي الحديث نما في القرية الاسوجية ذات الجذور الديموقراطية التي استمدت ماويتها من تربة الديموقراطية الفرنسية · ويستطاع تمييز اتجاهين في الادب الاسوجي المعاصر ، أحدهما متحول نحو اليمين الاقصى والآخر نحو الشمال الاقصى ، سوى أن روح التضامن يسود هذين الاتجاهين · ولكن بين هذا وذاك مكان فسيح يقطنه بضعة من المنعزلين بينهم اكبر ادباء أسوج كالشاعر الخطير فيلهلم اكيلوند الذي تأثر بأتباع الرومنطيقية الفرنسية في القرن الماضي ، والقصاصة ماريكا ستيرنستد التي استهلت حياتها

الادبية بقصص يغلب عليها نفوذ بول بورجه ، وهي من اصل بولوني وحفيدة الكونتس المشهورة هانسكا ، صديقة بلزاك .

واذا انتقلنا من اوروبا الى سائر بقاع الارض نجد تـأثير الادب الفرنسي كبيراً فيها ، فآناتول فرانس مثلا ما يزال الى اليوم نموذجـاً للتهكم والذوق الادبي في نظر الشطر الاكبر ممن يكتبون في العالم الجديد . وما يقال عن تأثير فرانس يقال عن تأثير زولا وموباسان وبودلير واندره جيـد وبروست وفلوبير وبرغسن وغيرهم . فمن تلاميذ زولا القصصي آبتن سنكلر الذي استهل عهده الادبي باخراج صورة صادقة عن الحيـاة الاميركية ، عن حياة المدن والمناجم والمصانع والشركات الكبرى وسواها من مظاهر النشاط الاميركي . ومن تلاميذ فلوبير القصصي سنكلر لويس الذي كان اول اديب نال جائزة نوبل ، فبطلة قصته « الجادة الكبرى » اشبه ما تكون بـ « مدام بوفاري » .

هذا في الولايات المتحدة ، اما في اميركا الجنوبية فالادب الارجنتيني الذي لا يرجع عهده الى اكثر من قرن قـد ولد في روائـع الكاتب استيبان اشيفيريا الذي مكث في اوروبا ردحاً من الزمن طويلا وأشرب في روحه الثقـافة الاوروبية والفرنسية منهـا بوجه خاص . على انه عرف ان يبقي لادبه

طابعه الارجنتيني الصرف ، مما حمل الدكتور ريكاردو روخاس على القول بأن الشجرة الفرنسية التي نقلت الى الارجنتين اعطت ثماراً تختلف كل الاختلاف عن الثار التي كانت تعطيها في تربتها الاصلية . وينقسم ادباء الارجنتين الاحياء الى اثنين ، احدهما تأثر بالادب الفرنسي والآخر بالادب الروسي . فهجرة الاسرائيليين الروس والسلافيين الى الارجنتين حولت الانظار الى مؤلفات تولستوي وتورغنيف ودوستويفسكي وغوركي التي تروج ترجماتها اكثر من رواج الكتب الارجنتينية نفسها . ولكن الادب الارجنتيني يميل بوجه عام الى التحرر ، وقد قال النقاد الارجنتيني خوان بابلو ايشاغي : « ان الادب الارجنتيني يتجه في الوقت الحاضر الى معاينة الاشياء الوطنية وتصويرها ، اي الى معاينة ما يقع تحت انظار الكتّاب مباشرة . فقد بقي المؤلفون الارجنتينيون زمناً طويلا يقلدون الاجنبي ولا سيما الفرنسي وينتحلون افكاره وصوره . اما اليوم فنراهم يجدّون في طلب ما يقوم حولهم ، ويسعون لاخراج مناظرهم وعاداتهم واعتماد طرقهم في النظر والتفكير .. . على اني لا اعتقد ان تأثير الادب الفرنسي في الادب الارجنتيني قد نقص من الوجهة الروحية .. » ويرى ليوبولدو لوغونس ، وهو من اكبر ادباء

الارجنتين ، ان هذه الاخيرة مشبعة بالثقافة اللاتينية وبالثقافة الفرنسية على الخصوص • وهي وان رأت في السنوات الاخيرة بضعة من ادبائها يبحثون عن نماذجهم في الادب الروسي او الانكلوسكسوني او السكانديناڤي الا ان تأثير الادب الفرنسي ما يزال بارزاً في مؤلفات كتابها وشعرائها حتى الذين يتجهون منهم الى الادب القومي •

والادب البرازيلي استمد عناصره الاولى من الادب الفرنسي ، فأدباء البرازيل غرفوا من فيكتور هوغو ولامرتين وموسه ، وكان تقليد هؤلاء الشعراء الفرنسيين اساساً للادب البرازيلي • وفي الحقبة الاخيرة شوهدت امواج الرمزية الفرنسية على شواطىء ريو ده جانيرو • واذا كان في شعراء البرازيل من يتغنى اليوم بالآلة وناطحة السحاب ، وصخب المدينة والمعمل ، وبالغابة العذراء ، فعلى ايقاع اشبه بايقاع بول كلوديل • واذا كان في نقاد الادب البرازيلي من يميل الى تقليد « تين » الذي كان استاذ الاستاطيقي والنقد الادبي في البرازيل آخر القرن المنصرم ، ففيهم من يميل الى رينان ويحذو حذوه • ويمكن القول بان الاساتذة الفرنسيين لا يزالون نماذج النقد في البرازيل • هذا الى ان مؤلفات الفيلسوف الفرنسي اوغست

كونت لم تعالج تأثيرها في اي قطر من اقطار العالم كما عالجته في البرازيل . ومما لا شك فيه ان ثورة ١٨٨٩ التي قلبت الامبراطورية واقامت الجمهورية يرجع الفضل فيها الى اشياع اوغست كونت . سوى ان الادب البرازيلي لم يقطع الدليل على مكانته في فن، كما قطعه في الاقصوصة والقصة . ففي العام ١٨٨٨ قدم جوليو ريبيرو قصته « الجسد » الى اميل زولا ، وكانت هذه القصة مستهل عهد غني بالقصص الواقعية . وكثيراً ما تكثر السخرية في مؤلفات الكتّاب الجدد الذين يأخذ عليهم الشيوخ اهمالهم اللغة العامية . فأناتول فرانس بقي ردحاً طويلا من الزمن مثال القسم الاكبر من هؤلاء الكتّاب ، ولا يزال الكثيرون الى اليوم يسمونه « آناتول » .

قلنا في مستهل هذا الكلام ان جميع الحركات الشعبية او الفكرية التي تمخضت بها اوروبا وآسيا انتهت حتماً الى فرنسا . على ان العبقرية الفرنسية عرفت كيف تضبط هذه الحركات وتخلع عليها طابعاً توجيهياً لا ذيوع لها بدونه ولا انتشار .

ومما لا نزاع فيه ان الوضوح من المزايا الثمينة التي تتصف بها الفكر الفرنسي ودفعت ادباء الارض الى الاقبال على فرنسا والاستقاء من معينها ، فمنذ « انشودة رولان » الى الربع الاخير

من القرن التاسع عشر بقي ادباء فرنسا ، كتابها وشعراؤها ، يحترمون تلك الحقيقة الابدية وهي ان الاديب لا يكتب الا ليُفهم ، وان على الكاتب ان يكلف نفسه مشقة الافهام وليس على القارىء ان يكلف نفسه مشقة حل الرموز والاحاجي . فالادب كاللغة وسيلة من وسائل الاتصال بين الناس .

وان يكن الادب الفرنسي حال خلال الحقبة الاخيرة عن عهده في جانب كبير منه فما لبث ان عقب الى تقاليده المأثورة ، هذه التقاليد التي نشرت الآداب الفرنسية في الخافقين واشعلت في كل صعيد منارة للثقافة ستظل مضاءة ما بقي العالم . ففرنسا الادبية حية في كل ارض يستنشق فيها روح انساني ، وحياتها هذه كافية للقيام بجميع المهام الكبرى .

الاتصال الاول بين العرب والفرنجة

انكر الدكتور برنارد لويس ، في كتيب صدر اخيراً عن « تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية » ، على جمهرة العلماء اعتقادهم مدة طويلة من الزمن ان اول اتصال هام بين الثقافة العربية وثقافة الفرنجة كان نتيجة للحروب الصليبية . قال : « وفي الحقيقة ان الحروب الصليبية كانت الفرصة الاولى التي سمحت بالاتصال الوثيق بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . ولا شك في انه حدث اذ ذاك تبادل ثقافي بين الفريقين . غير ان البحوث التاريخية الحديثة اثبتت ان هذا التبادل الثقافي كان محدود المدى والاثر ، وان وصول حركة الفكر والعلوم العربية الى الغرب كان عن طريق آخر . فبعد ان فتح العرب شمالي افريقيا ساروا بانتصاراتهم الى اوروبا واستعمروا اقليمين هامين في منطقة البحر الابيض المتوسط مدة طويلة . فقد اسس

العرب في اسبانيـا وصقلية مدنية زاهرة ارقى كثيراً من اية مدنية معاصرة لها في ذلك الوقت في البلاد المسيحية ، وهي المدنية التي خلفت آثاراً في المدنيات المسيحية المعاصرة لها . حتى انه بعد ان استعاد المسيحيون سيـادتهم على تلك البلاد ظلت العلوم العربية مزدهرة مدة من الزمن . وكان من الملوك المسيحيين من يتكلم العربية ويؤازر علماء العرب . وقـد شرعت الثقـافة العليا للعرب تنفذ الى بلاد الفرنجة منذ عهد مبكر اذ كان المسيحيون الذين يتكلمون العربيـة من اهل اسبانيا يتمتعون بنفوذ قوي ... »

وربما قصد الدكتور برنارد لويس بقوله ان التبادل الثقافي الذي حصل بين الشرق والغرب من جراء الحروب الصليبية كان « محدود المدى والاثر » ان هذا التبـادل الثقافي انحصر في الجـانب الاكبر منه بين الشرق وقسم محدود من الغرب ، والواقع ان الحركة الصليبية نشأت في فرنسا ونمت ثم تدفقت وطغت على حدودها ، وان هذه الحركة اكسبت فرنسا دون سواها مستعمرة واسعة النطاق شملت الساحل الشرقي من البحر الابيض المتوسط وعاشت مـا يقرب من مئتي سنة ، اي الى سقوط عكا ، آخر موقع بقي للصليبيين في الشرق . سوى

ان نفوذ فرنسا الادبي عاش على كر الزمن ولم تخبُ له شعلة في اي عصر .

ولكن ان يكن الفرنسيون قد حققوا هنا اعمالا مجيدة اذ اسبغوا على البلاد نعمة الرفاهية والخصب ومهروها بأنظمة عادلة نوه بها جميع المؤرخين العرب ، فقد استفادت فرنسا هي كذلك من الاتصال الوثيق بينها وبين الشرقيين ، ذلك ان التبادل الفكري رافق التبادل التجاري بين الفريقين واذا بالشرق ينفذ الى فرنسا بمعارف اطبائه وشارعيه وفلاسفته ورياضيه وفلكييه وبأشغاله الحريرية الدقيقة واسلحته الدمشقية وسائر فنونه .

ولولا الحركة الصليبية التي مشى على رأسها ملوك فرنسا وقوادها ومحاربوها ومقادستها لما كان القرن الثالث عشر العصر الذهبي لمملكة فرنسا ، ولما كان لهذه الاخيرة مؤرخوها العظام كأرنول **Ernoul** وفيلهردوين **Villehardouin** وجوانفيل **Joinville** ، ولما قدر لشعرائها ان ينشدوا تلك الملاحم الخالدة في مآثر ابطالها ، ولما اتيح لاساتذة جامعاتها المشهورة التي كانت تجذب اليها طلاب اوروبا بأسرها ان يملكوا معارف على جانب كبير من الاتساع ، ولما انتشرت فنونها من

بورغوس الى اسكاندينافيا ، ومن براغ الى قبرص والى سوريا ، ولما اوتيت اخيراً ذلك النفوذ العجيب الذي كانت تفرضه على العالم .

ومعلوم ان المدنية التي انشأها العرب في اسبانيا وانتشرت في سائر بقاع اوروبا ما لبثت ان زالت بزوال العرب ، لان الذين قدروا على اخراج العرب من اسبانيا ثابروا هم وخلفاؤهم على السعي لاخراج الحضارة العربية ايضاً . وقد يكون ذلك لسوء حظ اوروبا . اما المدنية التي نشأت من التقاليد الصليبية في الشرق فقد نمت وامتدت عروقها وطوت القرون الى ايامنا هذه .

لعدة قرون خلت بدأ الاوروبي يؤمن بسلطة العقل ، وقد تعلم ذلك من العرب الذين وضعوا العقل فوق السلطة وقالوا بوجوب استخدامه حكماً عالياً في الفصل بين الحق والباطل . ولكن خروج الحضارة العربية من اوروبا ابقى الباطل في الجزء الاكبر من اوروبا ، حتى في عهد الانبعاث . فالبورجوازية من جهة والريف من جهة اخرى بقيا متشبثين في مقاومة ثقافة من شأنها قلب القواعد القائمة بطناً لظهر . فالعقل يبطل الخرافات والعالم يطفح بها ، فكيف يمكن التوفيق بين العقل الذي ينفي العجائب والعجائب التي ترى في كل مكان ؟ في العام

١٥٠٠ شوهد في سماء الالزاس بقرب سافرن « رأس ثور تلمع بين قرنيه نجمة كبيرة » . وفي السنة نفسها شوهد في سماء لوسرن بسويسرا « تنين من النار يطير الى جهة الشرق » . وبعد ثلاث سنوات ، اي في العام ١٥٠٣ ، ظهر في قرية ويلسوك من دوقية بافاريا تنين عظيم يلفظ نيراناً من حلقه . وفي السنة نفسها ظهرت النجوم متلألئة في رائعة النهار بمدينة ميلانو . وفي الساعة الثامنة صباحاً من احد ايام كانون الثاني ١٥١٤ رؤيت ثلاث شموس تلمع معاً في سماء دوقية ويتامبرغ ، وكانت كل منها في شكل سيف طويل يقطر دماً . وفي ١٧ من شهر آذار من السنة نفسها رؤيت ثلاث شموس في النهار وثلاثة اقمار في الليل .

وفي العام ١٥٢٠ سمع بورجوازيو ويسمبرغ على الرين ضجيج معركة هائلة في السماء . وفي السنة نفسها حين توج كارلوس الخامس ، امبراطور المانيا ، شوهدت الشمس محاطة بحلقة كبيرة ، ثم تدلت من هذه الحلقة شريطة نارية فلامست الارض واحدثت فيها اضراراً جسيمة وعادت الى الجو . وفي العام ١٥٢٣ شاهد احد الفلاحين المجريين ليلا اميرين يتبارزان في الجو ، وكان اكبرهما سناً يحمل تاجاً على رأسه ، فقتله خصمه

ورمى تاجه على الارض . وفي العام ١٥٣٦ رؤي في سماء اسبانيا رجلان مسلحان يتقاتلان ، وكان احدهما يحمل على ذراعه اليمنى عصابة عليها نسر وحول النسر هذه الكلمة : « سأملك ! » وكان على الآخر درع عليها نجمة وهلال وهاتان الكلمتان : « لقد ملكت . » وقد اسفر الصراع عن مقتل صاحب الدرع . وفي العام ١٥٤٧ شوهد في الساكس تابوت يمشي في السماء مغطى بكفن اسود ووراءه جموع حزينة .

هذا فضلاً عن الدماء التي كانت تهطل من السماء فترسم كل نقطة منها صليباً على الثياب ، وعن البهائم التي كانت تتكلم ، والحيوانات العجيبة التي تشبه جليان يوحنا (الابوكاليبس) .

ومثل هذه العجائب او الخرافات كان كثيراً في اوروبا في تلك الازمنة الخارجة من ظلمة القرون الوسطى .

ومعلوم ان النجوم كانت تمثل دوراً كبيراً في خرافات تلك الازمنة . فالاوروبيون كانوا يعتقدون — وقد اخذوا ذلك عن العرب — ان بين كواكب السماء ومصائر الناس صلة حميمة فلا يكاد يولد طفل حتى يؤخذ برجه لمعرفة ما سيكون مصيره . وكان الملوك والامراء والعظماء يستشيرون الكواكب

قبل الاقدام على اي امر . وكان ثمة مثل سائر يقول : « كلٌ في واحد وواحد في كل . » ومن هذا المثل أُخذت سنّة القياس . فالكل هو العالم باسره والانسان الواحد هو الكل . فالكون هو في الانسان كالانسان في الكون . فما يرى مصغراً في المرء يكون مكبراً في العالم اجمع .

وبديهي ان هذا المبدأ أُخذ من الفلسفة اليونانيـة التي نقلها العرب الى الغرب ، وقد قال ابو نؤاس :

أتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وعلى هذا المبدأ قسم كل شيء الى ثلاثة : روحي وادبي ومادي . فالروحي في الانسان هو الرأس ، والادبي هو القلب ، والمادي هو البطن . والروحي في الكون هو السماء ، والادبي هو الارض ، والمادي هو الماء . وهذا كله من الاتصال بحيث لا يكاد يولد الطفل حتى تطابق حالته حالة الطبيعة باسرها في الوقت الذي تمت فيه الولادة .

قلت ان زوال الحضارة العربية كان شؤماً على اسبانيا واوروبا ، فالاندلس لم تعرف السعادة الا في ظل الامراء العرب ، وحالما ذهب العرب حل الدمار محل الثراء والجمال والخصب ، ذلك ان الملوك المسيحيين الذين خلفوا ملوك العرب

كانوا على جانب كبير من المهارة السياسية ولكنهم لم يضارعوا مهارة العرب في الادارة والتنظيم ٠

على ان اليد البيضاء التي اسبغها العرب على اسبانيا لا ينبغي ان تعمي ابصارنا وتحدرنا الى دركة التعصب فلا نرى للاسبان فضلا في بلادهم ٠ فالى جانب الحضارة العربية التي كانت تنمو في جنوبي اسبانيا كانت الحضارة الاسبانية تتنظم في المقاطعات المستردة ، وكان لكلتا الحضارتين اثرها العميق في الاخرى ٠ فالعرب والاسبان لم يكونوا في حالة حرب مستمرة ، بل كان ثمة فترات طويلة من التهادن بل من السلام كان الشعبان يتمازجان خلالها ويختلطان ، والعلايق يحتك بعضها ببعض ، وكان شعراء الاسبان يحلون في بلاط الخلفاء كما كان المغنون العرب وشعراؤهم يحلون مكرمين في قصور الملوك الاسبان ٠ وصفوة القول ان اقامة العرب الطويلة باسبانيا اشبه ما تكون بطغيان نهر كبير غمر الحقول بمائه وطينه ، ولكن النبات الذي استمد الخصب من هذا الطين وذلك الماء متأصل في الارض من زمن طويل ٠

ومما لا نزاع فيه ان الاتصال الفكري بين الشرق والغرب في زمن الصليبيين كان اوثق منه في زمن الغزوة

العربية لاسبانيا ، في زمن هذه الغزوة كان الاتصال ضعيفاً بين الشرق والغرب بداعي الطلاق الذي حصل بين عرب



شارل مارتيل

الشرق وعرب الغرب .

في مطلع القرن الثامن هاجم القائد العربي العظيم طارق ابن زياد اسبانيا بعد ان استولى على سوريا ومصر وطرابلس الغرب والقيروان وتونس والجزائر ومراكش . وما كاد العرب يستولون على قسم كبير من فرنسا حتى اهوى عليهم شارل مارتيل واوقفهم في بواتيه . ومنذ ذلك الحين اخذ العرب يتراجعون عن اوروبا ولكنهم كانوا قد بنوا ملكاً عظيماً في اسبانيا بقي لهم الى اواخر القرن الخامس عشر .

في ذلك الحين كان الخليفة العربي يملي شرائعه على نصف العالم ، على آسيا وافريقيا واسبانيا . ولكن في العام ٧٥٠ شبت الثورة في دمشق ، وأُعلنت السلالة العباسية بعد الفتك بالامراء الامويين . ولما نقل العباسيون حاضرة ملكهم من دمشق الى بغداد خضع لهم جميع العرب عدا اسبانيا الاموية ، فقد شقت عصا الطاعة للخليفة العباسي واعلنت استقلالها في قرطبة .

وبقيت القطيعة بين عرب الشرق وعرب الغرب قروناً عديدة . وفي خلال هذه الحقبة صار الادب العربي الى الانحطاط في الشرق من جراء التدهور السياسي والاقتصادي

فيه ، على حين كان في اوجه في الغرب ، ومن قرطبة وفلورنسا انتشر الخيال العربي في سائر بلاد اوروبا • وقد بقيت قرطبة مركز الثقافة في العالم الى القرن الخامس عشر •

ومجمل القول ان حضارة العرب في اسبانيا لم تفد الشرق مقدار ما افادت الغرب ، لان الاتصال الثقافي بين الجانبين بقي ضعيفاً حتى القرن الحادي عشر ، اي حتى قيام الحملة الصليبية • فلما توطد سلطان الفرنجة في الشرق وسهلت طرق الاتصال بين الشرق والغرب نشطت حركة التبادل الثقافي بين الطرفين وكان لاسبانيا العربية شأنها في هذه الحركة •


السلطان صلاح الدين

وفي اواخر القرن الثاني عشر ، اي في العام ١١٨٧ ، عندما

اخرج صلاح الدين الايوبي الصليبيين من فلسطين استولى الملك الفرنسي غي ده لوزينيـان Guy de Lusignan على جزيرة قبرص وعمل منها مستعمرة فرنسية ازدهرت فيهـا الفنون والآداب الفرنسية مطيبـة بأعراف الشرق ، وسرعان ما اصبحت قبرص صلة الوصل الوحيدة بين الشرق والغرب .

وقد بقيت حركة النشاط في قبرص الى العـام ١٣٧٢ ، اي الى الوقت الذي اقدمت فيه جمهورية جنوى على انـتزاع هذه الجزيرة من اسرة ده لوزينيان . وفي العام ١٤٦٤ طرد جاك الثاني ، وهو من اسرة ده لوزينيان ، الجنويـين من الجزيرة ، ولم يعتم الامر ان اقترن جاك الثـاني بكاترين كورنارو الايطالية ، وفي العام ١٤٨٩ تنازلت هذه الاخـيرة لجمهورية البندقية . سوى ان التقاليد بقيت فرنسية في قبرص .

وكما استولى الفرنسيون على قـبرص استولوا على جزيرة رودس مدة قرنين ، وحكموا جزيرة مالطة الى العام ١٧٩٨ . وهكذا بقيت فرنسا طوال قرون عديدة حامية الحضارة الغربية في الشرق . وقد قال احـد المؤرخين : « ان فرنسا هي الفرن الذي يخبز فيه خبز الانسانية الثقافي . »

في منابع الثقافة الفرنسية

كان اهتمام فرنسا بشؤون الشرق كبيراً في عهد الانبعاث. ففي العام ١٥٨٧ انشيء منبر للدروس العربيــة في « كوليج ده فرانس » ، فكان هذا المعهد اول مؤسسة اوروبية فكرت في تدريس اللسان العربي . ومعلوم ان جامعة كمبردج لم تبدأ بتدريس اللغة العربية الا في العام ١٦٣٢ .

. بعد وفاة الامبراطور الروماني ثيودوثيوس الاول الملقب بالكبير غرق العالم الاوروبي في ظلمة العصور ، ثم خرج منها على حين فجـأة ؛ خرج من الحقبة الطويلة التي سماها العلماء فيما بعد ظلمــات القرون الوسطى . وكانت الآلام والتجارب والمصائب نفسها كأنهــا مطهر يؤدي الى حياة ابدية سعيدة ، ولكن عودة فجائية الى القديم ايقظت العالم الاوروبي الى الحقيقة فأدرك ان الحياة الارضيــة من الخيرات التي يحسب احتقارها

امتهانا للطبيعة ومسبة لها ، واصبحت الفلسفة اقرب الى الانسانية ، وشرع الناس يتذوقون الحياة من جديد بعد ان لبثوا عهداً طويلا يعتقدون انها ليست سوى طريق محفوف بالمصائب والآلام .

وكان ان انشأ فرنسيس الاول مؤسسة « كوليج ده فرانس » فكانت اول مشعل مزق ما بقي من ظلمات القرون الوسطى وقضى قضاء مبرماً على الغباوة والجهل . ولم تقتصر هذه المؤسسة على تدريس اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية بل عكفت على جميع المعارف كالرياضيات والفلسفة والطب والجغرافيا وعلى كل ما يفتح القلب وينير العقل .

فرنسيس الاول

حالما افتتح محمد الثاني مدينة القسطنطينية في العام ١٤٥٣

هرب عدد كبير من علماء اليونان الى ايطاليا حاملا معه روائع المؤلفين اليونانيين القدماء ، وكانت هذه الروائع لا تزال مجهولة ، ونزل ضيفاً على البابا يوليوس الثاني وآل مدسيس .

وكان فرنسيس الاول يفكر في احياء الآداب والعلوم والاخذ بيد الكتّاب والموسيقيين والمصورين ، فما كاد يعقد معاهدة كامبري مع شرلكان ، امبراطور النمسا ، (وقد سميت هذه المعاهدة بـ « صلح السيدتين » اذ فاوضت فيها لويز ده سافوى باسم فرنسيس الاول ، ومرغريت دوتريش باسم شرلكان) حتى عمد الى بناء مؤسسة كبرى تجمع كنوز روما واثينا والشرق ، ودعا الى بلاطه كبار المصورين الطليان كده فنتشي وبنفنيتو شليني وغيرهما ، واشترى روائع الصور الزيتية والكتب النفيسة والمخطوطات . وهذه المؤسسة التي لقبت بـ « هيكل المعارف البشرية » لا تزال اعظم المؤسسات العالمية على الاطلاق اذ ليس في العالم نظام تدريسي باتساع نظامها الذي يشتمل على تدريس اللغات والآداب اليونانية واللاتينية والعربية والعبرية والكلدانية والسريانية والفارسية والتركية والسنسكريتية والصينية والمنشورية والسلافية وغيرها ، وعلى تدريس التاريخ والسلوك والمنطق والحقوق والاقتصاد

السياسي وطبقات الارض والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها .

وما انتصف القرن السابع عشر حتى بدأت الاهداف السياسية تشرف على ادارة الدروس الشرقية في « كوليج ده فرانس » ، وكان مندوبو الملك في الشرق يعدون العدة لهذه الدروس فيجمعون المخطوطات والوثايق التي استند اليها المستشرق برتلمي دربلو (١٦٢٥ — ١٦٩٥) في وضع قاموسه المعروف بالمكتبة الشرقية . وكان انطوان غالان Antoine Galland الذي نقل الف ليلة وليلة الى اللغة الفرنسية من مندوبي الملك في الشرق . وقد فتح الفوز الذي ادركته الف ليلة وليلة عهد الاقبال على تأليف القصص الشرقية في القرن الثامن عشر .

وقد يكون فولتير ابرع كتّاب هذا القرن في تأليف القصص الشرقية ، وفي جملة ما صنفه في هذا الفن حكايات « صادق » Zadig و« ساذج » Candide و« ملكة بابل » و « ميكروميغاس » وغيرها . اما « ميكروميغاس » فاسم يوناني مؤلف من كلمتين : ميكرو اي صغير ، وميغاس اي

كبير . ويقول تاريخ الادب ان فولتير قلد في قصته هذه احدى قصص الكاتب الانكليزي سويفت ، وقد جمعها هذا الاخير في كتاب سماه « رحلة غوليفر » . فاذا كان صحيحاً ان فولتير قلد سويفت فليس صحيحاً ان سويفت ابتدع بدعة كما يدعي تاريخ الادب .



فولتير

ومما لا شك فيه ان احد الاثنين اطلع على كتاب

الاساطير العربية وفيه قصة « عوج بن عناق » التي لا تشبهها قصة كما تشبهها قصة ميكروميغاس . وليس وجه الشبه بين « عوج بن عنـاق » و « ميكروميغاس » مثله بين « رسالة الغفران » و « المهزلة الالهية » . فاذا كان الشاعر الفلورنتيني دنتي نسخ خطة « المهزلة الالهيـة » عن « رسالة الغفران » واستعان بالشاعر اللاتيني فرجيل في طوافـه مناطق العقاب والثواب كما استعان الشاعر العربي بابن القارح في طوافه حلقات النعيم والجحيم ، فالكاتب الفرنسي العظيم تجاوز ذلك في قصته التي تهكم فيها على خصمه ده فونتنيل الى نسخه ليس خطة « عوج بن عناق » فحسب بـل الافكار التصويرية التي بنى عليهـا القصّاص العربي قصته هذه ، ولم يأت من عنده بسوى الخواطر الفلسفية التهكمية التي هاجم بها خصمه ده فونتنيل .

وبما ان قصة « عوج بن عناق » طويلة جـداً فسنختصر بعض صورهـا لاثبات الشبه العظـيم بينها وبين قصـة « ميكروميغاس » .

يقول القصّاص العربي ان « عوج بن عناق » مـارد من سكان الكواكب هبط الى الارض يرافقه احد الاقزام من ندمائه . ويصف هذا المارد الجبار فيقول ان المسافة التي بين

كتفيه ثلاثة فراسخ ، وبين انفه وعينيه نصف فرسخ ، وطول يده اربعة فراسخ ونصف فرسخ ، وانه يمر بالاوقيانوس فتكاد رجله لا تشعر بالرطوبة . واذا جاع تناول بضعة حيتان وشواها على القمر في الليل وعلى الشمس في النهار .

ومما يذكر عن « عوج بن عناق » انه كان يقيل ظهيرة يوم فشعر بتنميل في رجله ازعجه ، وفيما هو يحاول نفض الهوام عنها مرت قافلة فطلب من رجالها ان يطردوا الحشرات المعششة بين اصابع رجليه حالما يصلون الى هناك . ولما وصل رجال القافلة بعد مسيرة طويلة الى رجلي المارد شاهدوا قطعاناً من السباع ، من الاسود والنمور والفيلة ، ترعى في مطاوي اصابعه وعلى اظافيرها .

واليكم كيف يصف فولتير عملاقه ميكروميغاس . يقول الكاتب ان طول ميكروميغاس ثمانية فراسخ ! اي اربعة وعشرون الف قدم . فعندما يبلغ هذا الفتى اربعمئة وخمسين عاماً من عمره ، اي حين يوشك ان يخرج من عتبة الطفولة الى الشباب ، ينصرف الى تشريح حشرات صغيرة لا تتجاوز مئة قدم وتكاد لا ترى بالميكروسكوب العادي ، ويؤلف عنها كتابا مدهشاً يذيع صيته . على ان حاكم الشعرى اليمانية

التي ولد فيها ميكروميغاس يرى في الكتاب ما يدعو الى الشبهة فيأمر بمحاكمته بمادة الالحاد لان الكاتب بحث في هل ثمة اتفاق بين طبيعة البراغيث في الشعرى اليمانية وطبيعة الحلزون ؟ وتستمر الدعوى مئتين وعشرين عاماً يدافع خلالها الكاتب عن نفسه بمساعدة النساء وتسفر النتيجة عن فوز الحاكم بمعاضدة رهط من العلماء الذين لم يقرأوا الكتاب وعن نفي مؤلفه مدة ثمانية قرون .

ولكن ميكروميغاس لا يأسف لنفيه بل ينظم انشودة يتهكم بها على الحاكم وينتقل من كوكب الى كوكب كالعصفور من غصن الى غصن ، فيجتاز المجرة بوقت قصير وينتهي به السير الى زحل الذي يسكنه أقزام لا يتجاوز طول الواحد منهم ستة آلاف قدم . ولا يكاد يهزأ بهؤلاء الاقزام حتى يرتد الى رشده ويدرك ان العقل لا يقاس بمقياس الطول والعرض وان قزماً لا يتجاوز طوله ستة آلاف قدم قد يكون على جانب من الذكاء عظيم ، فيسعى الى التقرب من الزحليين ويتعرف الى كاتم اسرار المجمع العلمي الزحلي ، وهو رجل واسع المعارف لم يخترع شيئاً في حياته ولكنه يعطي آراء صائبة في مخترعات الآخرين ، وينظم بعض مقاطع

شعرية ، فيأنس به ، ويرتبط معه بعرى صداقة متينة . وبعد مباحثات تدوم ثلاثين عاماً يقرران القيام برحلة فلسفية .

واذ الفيلسوفان على أهبة السفر في اجواء زحل تسرع حبيبة الزحلي دامعة المقلتين كئيبة القلب وتوجه على عمله السيء ، وهي فتاة تكاد لا تبلغ ثلاثة آلاف وتسعمئة وخمسين عاماً من عمرها ، فتقول له : « يا ظالم ، أتهجرني بعد ان حافظت على حبك الفاً وخمسمئة سنة وارتميت بين ذراعيك قرناً كاملا لتقوم برحلة لا اعرف لها سبباً مع جبار هائل جاء من عالم غير هذا ؟ اذهب فما انت الا خائن ناكث العهد لا حبٌ في صدرك ولا وفاء . اذهب فلا خير في الرجال وليس اسخف من امرأة تحب رجلا . » فلا يتردد الفيلسوف ان يطوقها بذراعيه ويبكي معها برهة . ولكن الفتاة حين تشعر بأن لا بد من هجرها تذهب فتعزي نفسها بين ذراعي سواه .

ويسافر الفيلسوفان فيقفزان من قمر الى قمر ، واذ يقطعان مسافة مئة وخمسين مليون فرسخ يصادفان المشتري فيمكثان فيه عاماً كاملا يكشفان خلاله أسراراً غريبة كانت ولا ريب تحت الطبع لولا قلم المراقبة الذي رأى فيها بعض مسائل غير صريحة . ثم يتوجهان الى المريخ بعد اجتياز مئة

مليون فرسخ ، فيجدان فيه قمرين لم يتوصل الى اكتشافهما العلماء الفلكيون ، ولكنهما يخشيان ان لا يتوافر لهما فيه محل للنوم لصغر محيطه فيمران به كما يمر المسافر بجانة قذرة . واذ يقطعان مسافة طويلة يتراءى لهما شعاع ضئيل ينبثق من الابعاد . كان هذا الشعاع كرة الارض الصغيرة . ويستمران في السير فيعبران مذنب هالي ، ويشخصان الى الامام فيبصران الفجر في ركبانه الى ان يبلغا الشاطىء الشمالي من المحيط البلطيقي .

وبعد ان يستريحا قليلا ويأكلا جبلين كاملين يشوقهما ان يعرفا في اي بلد هما فيتوجهان اولا من الشمال الى الجنوب ، وكانت خطوة ميكروميغاس تبلغ ثلاثين الف قدم او اكثر . اما القزمة الزحلي الذي لم يكن له من الطول سوى ستة آلاف قدم فكان يركض خلف الجبار بتعب شديد . وبعد مسيرة خطوات قليلة يصلان الى ذلك المستنقع المعروف بالبحر الابيض المتوسط بعد ان يعبرا الغدير الصغير المعروف بالاوقيانوس فلا تغمر المياه سوى النصف الاول من ساق القزمة . اما ميكروميغاس فلا يكاد يتبلل عقب حذائه .

وفي هذه الآونة ينقطع عقد الماس على صدر العملاق

وتنفرط الجواهر واكبرها تزن مئتي الف غرام فيستعملان اثنتين منها ميكروسكوباً . وبعد جهد يتمكن الزحلي من رؤية شيء دقيق يتحرك بين موجتين . كان هذا الشيء حوتاً فيأخذه ببنصره ويضعه على ظهر ابهامه ويعرضه على ميكروميغاس .

ويواصل فولتير قصته ليخلص الى النتيجة الفلسفية متهكماً على خصمه ده فونتنيل . ولكن ما يهمنا من هذه القصة هو تسلق فولتير على الخيال العربي في الوصول الى مرماه الادبي .

ونستأنف بحثنا فنقول انه كان للمكتبة الملكية مندوبون في الشرق ، وهؤلاء المندوبون هم الذين هيأوا عهد الاستشراق الفرنسي في زمن حملة مصر وفي مفتتح القرن التاسع عشر تحت اشراف العالم الكبير سيلفستر ده ساسي (١٧٥٨ — ١٨٣٨) ، فقد بقي هذا العالم ثلاثين سنة يحث على تنشيط الدروس العربية في اوروبا حتى ليستطاع القول بكل تأكيد ان اساتذة الاستشراق الالمان الاول كانوا من تلاميذ ده ساسي .

ففي حين كانت الكتب العربية المطبوعة نادرة كان ده ساسي منصرفاً الى جمع مختارات من الادب العربي شعراً



سيلفستر ده ساسي

ونثراً . وفي ترجمة هذه المختارات وشرحها دليل ناصع على علو

كعب هذا المستشرق الذي اصدر طبعة ممتازة لمقامات الحريري مع تفسير ضافٍ لها . وكان ده ساسي قد نوَّه في مختاراته بأهمية ابن خلدون وسواه من المؤرخين العرب ، فحذا العلماء الاوروبيون حذوه بأن اكبوا على دراسة هؤلاء المؤرخين قبل ان يقبل عليها الشرقيون انفسهم .

ولا نزاع في ان اتصال الفرنسيين اتصالا مباشراً بالبلاد العربية بدأ منذ احتلال جيش نابوليون لمصر ، بعد ان مر على انقطاع الفرنج عن العرب قرون عديدة . والواقع ان الانتصارات الكبرى ، والفنون العسكرية ، والفتوحات الغراء ليست بالفضائل الوحيدة التي يترسمها التاريخ فيرقمها في مطاويه ، وليست بالفضائل الوحيدة التي تقف عليها نواظر الشعوب في حياة العظماء من الرجال الذين يدمرون الممالك او يشيدونها بقوة السيف . فالقيصر الكبير وان قهر الجرمانيين وغرس النسور الرومانية من قمة القوقاز الى جبال كليدونيا ، وجاز غاليا الى ايطاليا ، وروما الى مقدونيا ، وصحارى الفرسل الى افريقيا ، واطلال قرطجنة الى شواطىء النيل ، وعبر البوسفور والرين وجبال طارق والالب والبيرنيه ، الا انه سيَّر اسم روما ولغتها وعاداتها تحت حماية مجده الشخصي ، وحمل معه

عصر اغسطس وهو يتنزى الى مطارح الحياة والنور ، وبنى اعظم وحدة سياسية عرفتها الارض .

ولكن الدهر لم يقيض لاحد من بين جميع الفاتحين ان يتناول من اسباب الحظ والسلطان ما تناوله نابوليون الكبير .



نابوليون

فان يكن الاسكندر قد فتح في الحرب فتحاً امكنه من عصر بركليس فرفعه الى مذاهب الجوزاء كما حمل القيصر عصر اغسطس ، وان يكن هذان الفاتحان قد استمدا عبقرية هوميروس وسوفوكليس وافلاطون واريسطو وشيشرون وفرجيل وهوراس ، فان نابليون حمل معه ثلاثة عصور فسح لها الله في الفن والعلم والفلسفة ، وما كان عصره اقل انطلاقاً في ميدان العبقرية الفكرية من عصر من تقدمه من الفاتحين : فقد اجتاز اوروبا الى الشرق مع مونتين وديكارت ، مع كورنيل وراسين ، مع فولتير وروسو . وما كانت اركان حربه الا جامعة متنقلة طوّافة يرف فيها روح القرن الثامن عشر وتجوب جيوب الامم المتأخرة لتنزلها على تقاليدها وانوارها .

جاء نابليون الى مصر في العام ١٧٩٨ وفي نفسه من الشوق الى نفض غبار القرون عن موطن الفراعنة ما فيها الى فتح طريق الهند . وكان في ركابه طائفة من العلماء الاعلام كمونج وبرتوله وفوريه . فما كاد يفتتح القاهرة حتى انشأ فيها مؤسسة علمية ولى ادارتها جماعة من العلماء الذين رافقوه في حملته ، وكان عددهم مئة وثلاثة واربعين بينهم العالم والاديب والفنان والطابع . وكانت هذه المؤسسة

فاتحة عهد غني بالاكتشافات اسفر عن انشاء مركز لدراسة الآثار المصرية في « كوليج ده فرانس » ما لبث ان اصبح مستقر العلايق الودية بين علماء فرنسا وزملائهم في البلدان الاخرى .

وان يكن بونابرت قد فشل في فتح سوريا فقد تولى هذا الفتح مكانه اعلام الفرنسيين من رجال الادب والعلم ، فمن ذلك الاحتكاك الجديد بين الشرق والغرب نشأ في نفوس ادباء فرنسا وشعرائها شوق ملحّ الى زيارة الشرق ، وعلى اثره نشطت حركة الرسالات التي كان لها الفضل الاكبر في تحويل الشرقيين الى منابع الثقافة الفرنسية .

تأثر الشرقيين بمبادىء الثورة

حالما انسحب جيش نابوليون من مصر نشب النزاع على الحكم بين الحاكم التركي والمماليك . وما عتم الامر ان ولى السلطان سليم الثالث القائد العظيم محمد علي حاكمية مصر . واذ كان المماليك لا يزالون قوة لا يستهان بها صحت عزيمة محمد علي على القضاء عليهم . ففي اول آذار ١٨١١ اقام لهم حفلة استقبال كبرى في سلملك القلعة ، وهناك اعمل فيهم الذبح وافناهم على بكرة ابيهم . وهكذا انتهى حكم المماليك الذي ابتدأ من القرن الثالث عشر .

ومنذ ذلك الحين خلا الجو لمحمد علي ، واول ما فكر فيه انشاء جيش واسطول ، وقد انشأهما بمساعدة الضابط الفرنسي الكولونيل سيف Sève (سليمان باشا) والفرنسيين بيسون Besson وسريزي Cerizy . وكان محمد علي يطمح

الى انشاء دولة عربية ويعلم ان المعارف والصناعة هي قوام هذه الدولة ، فاستقدم من اوروبا طائفة من جلة علمائها وصناعييها وفي طليعتهم الطبيب الفرنسي كلوت بك واسمه الاصلي انطوان



محمد علي باشا الكبير

برتلمي كلوت (١) . وقد اسس هذا الاخير في قرية ابي زعبل ، الواقعة على مسافة اربعة فراسخ من القاهرة ، مدرسة طبية انجبت اثني عشر طبيباً مصريا ذكرهم جرجي زيدان في كتابه « مشاهير الشرق » وهم : احمد الرشيدي ، حسن الرشيدي ، محمد منصور ، ابراهيم النبراوي ، حسين الهيهاوي ، عيسوي النحراوي ، مصطفى السبكي ، محمد الشباسي ، محمد السكري ،

١) ولد كلوت بك في غرينوبل عام ١٧٩٣ وتوفي عام ١٨٦٨ . وكان والده من جنود نابوليون المتقاعدين فلم يترك له موردا عند موته . سوى انه كان شديد الرغبة في دراسة الطب فذهب الى مرسيليا واشتغل خادماً عند احد الحلاقين ليستطيع مواصلة دروسه . وما عتم الامر ان عين طبيباً معاوناً في احد مستشفيات مرسيليا . وسرعان ما اخذت الدسائس تحاك حوله فترك منصبه في المستشفى وانصرف الى ممارسة حرفته مستقلا فكسب شهرة كبيرة في المدينة . وفي العام ١٨٢٥ استقدمه محمد علي باشا لتنظيم الصحية في مصر على الطريقة الاوروبية ، فأسس مستشفى ممتازا في قرية ابي زعبل الواقعة على بعد ١٦ كيلومترا من القاهرة ، وجعل في هذا المستشفى مدرسة طبية نقلها الى القاهرة عام ١٨٣٣ . وقد اشتهر كلوت بك في مداواة الطاعون والكوليرا ، كما اشتهر في تنظيم المعارف العامة في مصر . ولما توفي محمد علي عاد كلوت بك الى فرنسا حاملا مجموعة نفيسة من الآثار المصرية تركها للدولة قبل موته .

محمد الشافعي ، احمد بخيت ، ومحمد علي البقلي .

وكان السوريون واللبنانيون والمسيحيون منهم بوجه خاص



روسو

قد بدأوا يتأثرون بالثقافة الفرنجية . فلما غزا ابراهيم باشا ، نجل محمد علي ورئيس اركان حربه ، سوريا ولبنان ، وذلك في العام ١٨٣٢ ، راح يبذل المساعي لتقريب المسيحيين اليه وحملهم على الالتفـاف حوله . وكان غرضه من ذلك اكتساب جميع

الطوائف تمهيداً لجمع العرب تحت لوائه توصلاً الى انشاء الدولة العربية ٠



ميرابو

على ان السياسة ما لبثت ان قلبت لابراهيم باشا ظهر المجن فعاد الى مصر عام ١٨٤٠ وتبعه اليها عدد كبير من مثقفي السوريين واللبنانيين وطالبي الثقافة منهم — وكانت القاهرة عهدئذ قبلة اهل الشرق ومنار العلم والفضل — وسرعان ما نشطت حركة ثقافية مباركة هي ولا شك مستهل عهد النهضة

التي رافقتها حركة الرسالات الفرنجية التي يرجع اليها الفضل الاكبر في تحويل الشرقيين الى منابع الثقافة الفرنسية ، على حد ما قلنا في الفصل السابق من هذه الدراسة .



دانتون

ولا نزاع في ان مبادىء الثورة الفرنسية التي حملها بونابرت الى مصر كانت ابلغ ما تأثر به الشرقيون العرب عند اول احتكاك لهم بالحضارة الغربية ، واتساع آفاقهم العلمية والادبية .

وبديهي ان يتعشق الشرقيون الذين عانوا ما عانوه من

المظالم والرق في مختلف عهود الاقطاعية ، مبادىء هذه الثورة التي تميزت عما تقدمها من المبادىء بأنها لم تميز بين الخلق الا بمقدار ما يتميزون بفضائلهم ومواهبهم . لقد قامت الثورة الفرنسية على الفلسفة الصحيحة وهي اكتشاف شريعة الله في المجتمع وتطبيق قوانين الشارع عليها ثم توجيه الاعقاب البشرية من مجتمع الى آخر فلم تثر على الطبيعة فتسحق هذه الاعقاب تحت انقاض قوانين ناقصة . فمن روح الله ، من الشعب والعدل والانسانية استمدت الثورة الفرنسية عناصر دستورها فكان دستور الحرية والمحبة والعقل .

ومن حسنات هذه المبادىء التي تحولت اليها افكار الشعوب انها الغت التسول بانشاء منظمات للعمل وملاجىء للعجز ، واوجبت الاغنياء على المساهمة في اسعاف المجتمع كلا بمقدار طاقته ، وتبنت جميع الاطفال اللقطاء ، ووضعت لجاماً في فم الجشع التجاري ، وقررت التعليم الاجباري لتعميم شيوعية الفكر لان الجنس البشري هو بمثابة أب مفروض عليه ان يخلف لذراري الوطن ميراث جميع الافكار والمعتقدات والآراء ، ولأن التربية هي كالهواء ينشقها جميع المواطنين على السواء ، واوجبت ان يكون العمل جزءاً جوهرياً من التربية ، وحرائة

الارض اولى عناصر هذا العمل . ذلك أن اشغال الحقل اشرف حرف الانسان لانها تقوت العامل بطريقة مباشرة ولا تحرك عاطفة الجشع في الكسب كسواها من الاشغال الاخرى .



سان جوست

وهكذا بدت الاثرة الفردية كأنها تنخسف امام مبدإ الاخلاص للوطن ، ففرضت الضرائب على اساس الثروة ، واسعف العجز والكسحاء ، وتُبني الاولاد الذين لا آباء لهم ،

وانتشلت الامومة غير المشروعة من هاوية العار الذي يقتل الولد بهتكه حرمة الام ، واعلنت حرية الضمائر ، والغي الرق والمتاجرة بالعبيد ، واتخذت جملة تدابير شعبية تقيم الرأفة السياسية بمثابة معاهدة تحالف بين الغني والفقير ، وبدت محبة الشعب كأنها تنتشر في جميع نواحي الادارة .



روبسبير

قلنا ان الشرقيين تعشقوا هذه المبادى. واتخذوها اساساً

لاتجاهم الفكري في الادب والسياسة . ويقيننا انه لولا تلك
الحركة السنية التي انبثقت من افواه فولتير وروسو وميرابو
ودانتون وكميل ديمولان وسان جوست وروبسبيير وغيرهم لبقي



بنجمان كونستان

الشرق هاجعاً في خموله الاقطاعي سواء في السياسة او في

الادب · فالحركة الثورية الكبرى التي تشعبت اندية واحزاباً لخدمة فكرة انسانية واحدة وقامت على لألاء الخيال الجميل في افواه خطبائها ، كانت منشأ تلك الحركة الادبيـة التي نفخ في بوقها شاتوبريان ومدام ده ستال وبنجمان كونستان وحمل لواءها لامرتين وفيكتور هوغو وده فينيي ، وتشعبت فيما بعد الى اندية واحزاب او الى مدارس ، فكانت البرناسية وكانت الرمزية على مثال « الجبل » و « السهل » في عهـد دانتون وروبسبيير ·

ومن هذه الحركة الثورية في الادب الفرنسي نشأت حركة على مثالها في الادب العربي ، فمن الرومانتزم الشرقي الذي نفخ في بوقه البارودي في مصر وخليل الخوري في لبنان وحمل لواءه شوقي ومطران وولي الدين يكن والمـلاط وبشاره الخوري وفياض وغيرهم ، نشأت رمزية مستقيمة لم تفقد فيها اللغـة حياءها فتلهو بالمساحيق كالمرأة الفارغة · وهذه الرمزية الصحيحة حمل لواءها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه وايليـا ابو ماضي ونسيب عريضه وغيرهم ·

واذا قلنا ان الثورة الفرنسية أثرت تأثيراً حاسماً في تطور الفكر الشرقي فلا يعني ذلك ان مـا سلف من تاريخ فرنسا

السياسي والادبي لم يكن له اي تأثير في هذا التطور ، فأول ما فكرت فيه الرسالات الفرنسية عندما امت هذه البلاد هو بثها الفضائل التي تحلى بهـا ملوكها وادباؤها ورجالها العسكريون والبحريون ، وقد كان لهذه الدعوة اثرها العميق في المسيحيين على الخصوص ، فراحت الناشئة تغرف من معين تلك الفضائل غذاء لتفكيرها ، واذا هي تعرف عن كلوفيس وشرلمـان والقديس لويس وفرنسيس الاول وهنريكس الرابـع ولويس الرابع عشر ، وعن دوكيكلان وجان دارك وبايار وكونده وتورين وجـان بار ودوغي تروين ، وعن رابله وديكارت ومونتين ورونسار وماليرب وكورنيل وراسين وبوالو ولافونتين وموليير ، اكثر بكثير مما تعرف عن ابطالها وادبائها وملوكها.

وقد يكون مرد هذا الى ان النـاشئة المسيحية في الشرق حملت على الاعتقاد ، من حصر الدعوة في مـا انطوى عليه التاريخ الفرنسي من الفضائل ، بأن تاريخها لا يرتبط بتـاريخ العرب جاهلة انه من خطل الرأي القول بأن تاريخ العرب هو تاريخ الامة الاسلامية دون سواها .

سوى ان مبادىء الثورة الفرنسية التي أشربتها هذه الناشئة وخاصة عند تركها مقـاعد الدروس خلقت في نفوسها شعوراً

وطنياً نشأ هو بدوره من الموجة التحريرية التي غمرت التفكير وسيطرت على المجرى الادبي ، فراحت تبحث عن عزتها الوطنية فما وجدتها كاملة موفورة الا في تاريخ العرب . وعن هـذا الاتجاه التفكيري صدرت المنـازع السياسية في مصر وسوريا ولبنان ، وكانت حركة مباركة غذتها روابط اللغـة واواصر الجوار وتقارب الآلام والاهداف .

وما كادت الحرب الكبرى (١٩١٤ – ١٩١٨) تضع اوزارها حتى ارتفعت اصوات الشرقيين على اختلاف اجنـاسهم داعية الى الاخاء والمحبة والحرية والمساواة . والواقع ان هذه الاصوات كانت قد سمعت قبل نشوب الحرب الكبرى بزمن طويل . فالحروب لا تخلق شيئـاً بل تخرب وتهدم . ومن خطل الرأي القول بأن الحرب تبدل مجاري الافكار وتوجـد حركة جديدة في الرأي ، فكل ما تستطيعه الحرب انها تعجل احياناً تطور الاحداث .

الادب العربي والحركة الرومنطيقية

معلوم ان الجيل الفرنسي في اواخر الثلث الاول من القرن التاسع عشر طالب بسلوك سياسة اوسع رِفناء على منوال السياسة الانكليزية وبمقتضى تقاليد الثورة الكبرى والامبراطورية . وبديهي ان تجد هذه السياسة مسرح توسعها في الشرق ، ولا سيما في مصر اذ كان محمد علي ، وارث خطط بونابرت ومجده ، لا ينشد الا التعاون الفرنسي . وكانت فرنسا تطمح الى تحقيق حلم نابوليون وهو جعل البحر الابيض المتوسط بحيرة فرنسية . ولم يكن تحالفها مع محمد علي الا حركة التفاف لهدم معاهدات ١٨١٥ . سوى ان الملك لوي فيليب كان قد تعهد لانكلترا باحترام هذه المعاهدات ، ولم يشأ هو ولا وزراؤه الاصغاء الى رأي المستنيرين من ابناء الجيل الطالع .

وكان العـام ١٨٤٠ عام « عودة رفات نابوليون » من جزيرة القديسة هيلانة ، فاستيقظت امجاد الماضي في الارواح وراح تيير بعد سقوط وزارته في الثـاني من آذار يدافع



رفاعة بك الطهطاوي

عن سياسته في مصر ، واذا بنفَس حربي يهب من كتاباته في الصحف .

ولم يكن تيير يعارض في التحالف مع انكلترا ، اذ

لم يكن ثمة دولة اخرى يصح التحالف معها ، ولكن بشرط ان تعترف انكلترا بحقوق فرنسا ومصالحها . وكانت ازمة الشرق في ابانها . قال : « ان فرنسا لتشهر حروباً طاحنة كي



احمد فارس الشدياق

تحول دون استيلاء انكلترا على مصر ، ولكنها لن تعارض في ان تكون مصر ممراً حراً لتجارة العالم . »

وراح يحث الحكومة على تحصين باريس ويجاهر بان لمحمد

علي موارد كثيرة وجيشاً قوياً فهو لن يعتزل الملك .
وكان الكونت روسي ، الديبلوماسي الفرنسي المشهور ، يلزم مثل هذا المنطق . قال : « لقد احسنت حكومة تييرس وسيقف الى جانبها الرأي العام في فرنسا وفي العالم باسره . ان فرنسا على أهبة التسلح ، فاذا لجأت الدول الى وسائل تتنافى مع مصالح فرنسا وكرامتها فلن تقف فرنسا مكتوفة اليدين بل تقيم العالم شاهداً على سلوكها وولائها وتضرع الى الله ان يبارك اعلامها كما بارك اعلام فلوروس واوسترلتز . وهي لم تنس ان الله نصرها ثلاثين سنة . »

سوى ان انكلترا لم تابه كثيراً لهذا الوعيد اذ لم تكن تجهل ان لوي فيليب وغيزو لن يعلنا الحرب . فقام الكتّاب السياسيون يوجهون نقداً لاذعاً الى سياسة غيزو الذي شكل « وزارة الاستسلام » ، وكانت الفصول التي عقدها شارل ده ريموزا في « مجلة العالمين » من آلم ما وجّه الى سياسة غيزو في ذلك الحين . على ان محمد علي لم يدافع عن نفسه بل استسلم بدون مقاومة ، وهكذا انهارت السياسة التي سلكها تييرس واصحابه .

في تلك الاثناء لم يكن في الاقطار العربية جميعاً الا

جريدة واحدة هي « الوقائع المصرية » التي انشأها محمد علي باشا في مصر عام ١٨٢٨ بمساعدة الاديب رفاعة بك رافع الطهطاوي ، وهي اول جريدة عربية ظهرت في العالم بعد



الشيخ ناصيف اليازجي

جريدة « التنبيه » التي اصدرها جيش الاحتلال الفرنسي في الاسكندرية عام ١٨٠٠ . على ان « الوقائع المصرية » كانت (ولا تزال) جريدة رسمية . وكانت غاية محمد علي من انشائها

بث المعارف والعلوم ونشر التمدن الحديث ، فلم تخض ميدان السياسة الا مقـدار ما كان يلائم سياسة منشئها الكبير ، رأس الاسرة المالكة في وادي النيـل • فبقي المستنيرون في مصر وفي سائر الاقطار العربية بمعزل عن الميدان السياسي او بالاحرى عن القضية الشرقية التي كانت في متنـاول الادباء والمستنيرين في الغرب •

ومعلوم ان مصر وان كانت في ذلك العهد قبلة اهـل الشرق ومنار العلم بفضل مـا اسبغت عليها جهود محمد علي الذي انشأ المدارس ونشط حركة ارسال الوفـود الى اوروبا لنقل المعارف الغربية ، الا انها كانت تفتقر الى امثال الادباء والشعراء الذين كانوا يبنون النهضة الادبية في لبنـان وعلى رأسهم احمد فارس الشدياق وناصيف اليازجي وبطرس البستاني ويوسف الاسير ومارون النقاش •

في تلك الحقبـة كانت حركة الرومانتزم قد توطدت في فرنسا بعـد الانتصار الكبير الذي احرزته على يد لامرتين وهوغو وفيني وادكار كينه واسكندر دماس وبلزاك وسنت بوف وبلانش وشارل نوديه واوغست باربيه وميشله ومونتالمبر والفرد ده موسه وجورج صند وغـيرهم ، سوى ان ادباء

الشرق لم يتأثروا بهذه الحركة تأثراً محسوساً الا حين انتشرت الحركة الصحافية في اقطار الشرق ٠

ويبدأ انتشار هذه الحركة من العام ١٨٥٨ ٠ ففي هـذه



خليل الخوري

السنة انشأ الشاعر خليل الخوري في بيروت جريدة « حديقة الاخبار » ٠ وبعد سنتين انشأ المعـلم بطرس البستاني جريدة

« نفير سوريا » . وفي العام ١٨٦٣ انشأ الدكتور كرنيليوس فنديك « النشرة الشهرية » . وفي ١٨٦٦ اصدر عبد الله ابو السعود جريدة « وادي النيل » في القاهرة ، واصدر فيها ابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال جريدة « نزهة الافكار » عام ١٨٦٩ . وفي العام ١٨٧٠ اصدر سليم البستاني في بيروت جريدة « الجنة » وأتبعها بعد سنة بـ « الجنينة » . وكانت « البشير » قد صدرت في العام ١٨٧٠ .

قلت ان حركة الرومانتزم كانت قد توطدت في فرنسا بعد ان احدثت دوياً عظيماً وصل صداه الى اقطار المعمور . وقد استهدفت هذه الحركة في مستهلها هدم المذهب الكلاسيكي فأسرفت في تحقير من يمثله من رجال الادب والعلم ، وفي طليعة هؤلاء الممثلين اعضاء الاكاديمية الفرنسية ورجال « الكوميدي فرانسيز » التي كانت متمسكة بمسرحيات كورنيل وراسين وموليير .

وكان سنت بوف وغوستاف بلانش من اشد النقاد المتحمسين للرومانتزم فكانا يقولان بضرورة احلال مسرحيات فيكتور هوغو والفرد ده فينيي واسكندر ديماس محل مسرحيات كورنيل وراسين وموليير ، ويحملان على الاكاديمية

لاقفالها بابهـا في وجه ممثلي الفن الجديد كبيرانجه ونوديه وهوغو .

وممـا يؤثر عن نقاد الادب في ذلك العهد انهم كانوا



فيكتور هوغو

يتعمدون — عن سابق قصد وتصميم — قتل المذهب الانشائي القديم واحياء المذهب الجديد ، لا لشيء الا لنصر مدرستهم. ولكن ما كاد هؤلاء النقاد يحرزون الفوز حتى القوا سلاحهم

وأعلنوا عدولهم عن النقد التقريظي الى النقد المستقيم .

والواقع ان النقادين سنت بوف وغوستاف بلانش لم يتشبثا الى النهاية في ارسال البخور وقرع الطبول ، فما كادت معركة



غوستاف بلانش

الرومانتزم تنتهي بالنصر حتى استرجعا حريتهما واذا بفيكتور هوغو يسقط عن عرش الالوهـة الذي اجلساه عليه ويصبح كسائر الشعراء من ابناء الارض لا من ابناء السماء . ولقد

بلغ غوستاف بلانش في استقلاله درجة لم يجد معها بأساً من ان يقول لفيكتور هوغو ، عندما اصدر هذا الاخير مجموعة كاملة من تآليفه وذلك في العام ١٨٣٨ : « ان كل ما



سنت بوف

كتبته حتى الآن مقضي عليه بالموت ! ... »

ولم يتناول النقاد « المحرَّرون » فيكتور هوغو وحده بل تناولوا جميع ابطال الرومانتزم الذين ألَّهوهم في الماضي وفي

عدادهم لامرتين . فلما صدرت « سقوط ملاك » لهذا الشاعر عقد سنت بوف فصلا انتقادياً قال فيه : « قد يكون لامرتين اعظم خطيب واعظم سياسي في عصره ، ولكنه حين يخوض ميدان الشعر لا يحق له ان يعطينا أبياتاً مرتجلة . »

غير ان رجال الحركة الرومنطيقية الذين استرجعوا حريتهم واستقلالهم عقيب فوزهم في المعركة التي اثاروها لم يحيدوا عن تقاليدهم بل ظلوا متمسكين بها ، ذلك انهم كانوا مؤمنين بالرومانتزم الذي هو التعبير عن وجدان الكاتب . ففي العام ١٨٤٠ اعلن كتاب « مجلة العالمين » حملة على الاكاديمية الفرنسية وافهموها ان من واجبها ان تضم امثال هوغو وسنت بوف وفيني وتيري ومريه وموسه ودياس وكينه وغيرهم من ابطال الحركة الرومنطيقية .

كان ذلك في غضون السنوات العشر الاولى من الثلث الثاني من القرن التاسع عشر . ولم تجد هذه الحركة ارضاً خصبة في الشرق الا بعد مرور سنوات عديدة على خفوتها ، اي بعد انتشار الصحافة في الاقطار العربية . وبديهي ان يتأثر بها الشرقيون ، فالرومنطيقية كانت ثورة على القديم على

مثال الثورة الكبرى التي تقدمتها في الميدان السياسي .
فالهدنة الطويلة التي عقبت اضطرابات الثورة الكبرى والهزة
المجيدة التي احدثتها الامبراطورية اشاعت القلق في الروح



جورج صند

الفرنسية المتشوقة الى الجديد فكانت ثورةٌ في الادب على
مثال ما تقدمها في السياسة ..

ومعلوم ان تلك الوثبة الثورية والنابوليونية التي كانت

بالفعل ملحمة عملية واقعية كانت قد هيجت الارواح بدون ان تفسح لها السبيل الى الانشاد . سوى انها ما لبثت في الجيل التالي — وكان العدد الاكبر من رجال الحركة الرومنطيقية ابناء قواد الجيش النابوليوني — ان اضرمت شعلة من الشعر لم يعرف مثلها منذ عهد رونسار .

وكان الشرقيون الذين عاشوا عهوداً كثيرة من الاضطرابات على مثال الفرنسيين ، فما انتهى اليهم التمدن الحديث وحصل ذلك الاحتكاك المباشر بينهم وبين الحركة الادبية في الغرب حتى كانت الرومنطيقية اول جرعة أُشربوها فاصطبغ بها ادبهم ولا تزال متغلبة عليه حتى يومنا هذا .

عهد النقل والاقتباس

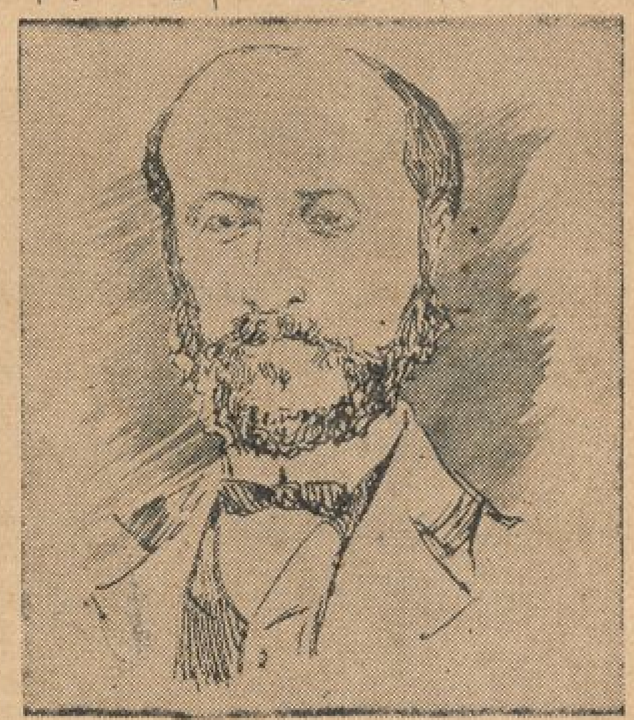
كان الادباء المقلدون ، ادباء المديح والرثاء والالغاز والاحاجي ، يبصقون آخر اسنانهم — وقد أستثني منهم اديبين او ثلاثة جرؤوا في ذلك العهد التقليدي في التفكير والشعور على تلمس شخصياتهم ، وفي جملتهم الشاعر فرنسيس فتح الله مراش الذي توفي في السابعة والثلاثين من عمره ، ويكفيه انه هو القائل :

انا على ما انا من الخُلُق　　باقٍ على مذهبي وفي طرقي
فلا كبير سطا علي ولا　　يد لها منّة على عنقي
ولا اشتريت الثناء من احد　　بالمال بل بالجهاد والارق
أستي غروسي فان اجد ثمراً　　أقطف والا رضيت بالورق

كان الادباء المقلدون يبصقون آخر اسنانهم حين احتل مكانهم ادباء اقوى شخصية ، واسلم بيـاناً ، وامتن لغة ،

وارقى ثقافة ، ولكنهم ... ناقلون او مقتبسون .

وكان من عادات ذلك العصر ان الناقل لا يذكر اسم المنقول عنه . ويكفيه ان يبدل الاسم ليملك الجسم . وقد



فرنسيس مراش

يكون اول من اتبع هذه القاعدة الاديب مارون النقاش ، مؤسس فن التمثيل في اللغة العربية . فقد نقل مسرحية « البخيل » لموليير — وهي اول مسرحية كتبت باللسان العربي — ولم يذكر انها لمؤلف « ترتوف » و « الميزانتروب » .

ولا شك في ان مارون النقاش ، رحمه الله ، اراد ان ينتقم للشاعر الروماني بلوت الذي اخذ عنه موليير مسرحية « البخيل » — وهي تقليد موفق لمسرحية « الاولولير » للشاعر الروماني الهزلي — فلم يذكر اسمه ولا أبه له .

واليكم مشهداً من مسرحية « الاولولير » نقله موليير في مسرحيته « البخيل » :

اوكليون (وحده) : لقد قضي عليَّ ! لقد مت ! لقد قتلت ! الى اين اركض ؟ الى اين لا اركض ؟ قف . قف ! من ؟ لا اعلم . لا ارى شيئاً ، فانا اركض كالاعمى . لم ابق اعرف اين انا ، ومن انا . ارحموني . اتوسل اليكم . تعالوا الى نجدتي . دلوني على السارق . (يلتفت الى النظارة) انتم الجالسون هنا المختبئون بثيابكم البيضاء كما لو كنتم من الشرفاء . . . ماذا تقول انت ؟ يجب ان اصدقك لان سحنتك تدل على انك رجل طيب ... ماذا ؟ أتضحك ؟ آه ! اني لأعرفكم جميعاً وأعرف ان في هذا المكان اكثر من لص واحد . . . ماذا ؟ من منكم يخبىء دراهمي ؟ لا أحد ؟ انكم لتميتونني . تكلم انت ! اين دراهمي ؟ ألا تعرف ؟ يا لي من مسكين ! يا لي من بائس !

لقد قصّوا لي حنجرتي · لقد تركوني بدون ملجأ ! يا له نهاراً حمل الّي الدموع والحزن الاسود والجوع والفقر ! أفي العالم مخلوق أشد بؤساً مني ؟ ماذا بقي لي على الارض وقد فقدت كل ذهبي ؟ كنت أحرم نفسي ضرورياتها لاجل المحافظة عليه ، واذا بغيري يتمتع به ويهزأ بفقري وخرابي !

واليكم كيف نقله موليير في « البخيل » :

هرباغون (يصرخ الى اللص ويدخل بدون قبعة) : الى اللص ! الى اللص ! الي القاتل ! الى الجاني ! عدلك ايتها السماء العادلة ! لقد انهدمت ! لقد سفكوا دمي ! سرقوا مالي ! من السارق ؟ ماذا حل به ؟ أين هو ؟ في أي مكان يختبيء ؟ ماذا اعمل لاهتدي اليه ؟ الى اين اركض ؟ الى اين لا اركض ؟ أليس هو هنا ؟ أليس هو هناك ؟ من هذا ؟ قف ! قف ! أرجع اليّ مالي يا احمق ! (يقبض على نفسه) آه ! هذا انا ! لقد فقدت شعوري ، واجهل في اي مكان انا ، ومن انا وماذا اعمل · اواه ! يا دراهمي المسكينة ، يا دراهمي المسكينة ، يا صديقتي الحبيبة ! لقد حرمتك · وبما انك نزعت مني فقد فقدت سندي وعزائي وفرحي · آه ! انتهى كل شيء ولم يبق لي حاجة بالدنيا ·



كورنيل يتلو مقطعاً من احدى مسرحياته على صديقه موليير

فبدونك يا دراهمي لا استطيع الحياة . قضي الامر . قضي الامر ! آه ! اني اموت . لقد مت . لقد دفنت . أما من احد يستطيع أن يحييني بردّ دراهمي اليّ او باطـلاعه اياي على من سرقهـا ؟ آه ! ماذا تقول ؟ لا احد ... لا بدّ ان هناك احداً سرقها بعد ان سعى كثيراً لاغتنام الفرصة . ولا شك ان السارق عرف كيف يستفيـد من الوقت حين كنت اخاطب ابني الخـائن ! فلأخرج . يجب ان ارفـع شكواي الى العدالة واوقع الواقعة في البيت بين الخـادمات والخدم والابن والابنة وأنا ايضاً ... (يلتفت الى النظارة) من هم هؤلاء ؟ انهم كثيرون . لا يقع نظري على اي منهم الا يخيل اليّ انه السارق . يه ! عمّ يتكلم هؤلاء ؟ أعن الذي سرق دراهمي ؟ وما هذه الضجـة التي اسمعها ؟ أترى اللص الذي سرقني هو هنا ؟ بحقكم جميعاً ، اتوسل اليكم أن تهـدوني الى مكان اللص ان كنتم تعرفون بأي مكان يقيم ! أليس مختبئاً هنـا ، بينكم ؟ اراهم ينظرون اليّ ويضحكون . لا شك انهم مشتركون في السرقة . هيـا ، أحضروا الشرطـة . أحضروا القضاة . أحضروا آلات التعذيب . أحضروا المشانق والجـلادين . اريد ان اشنق

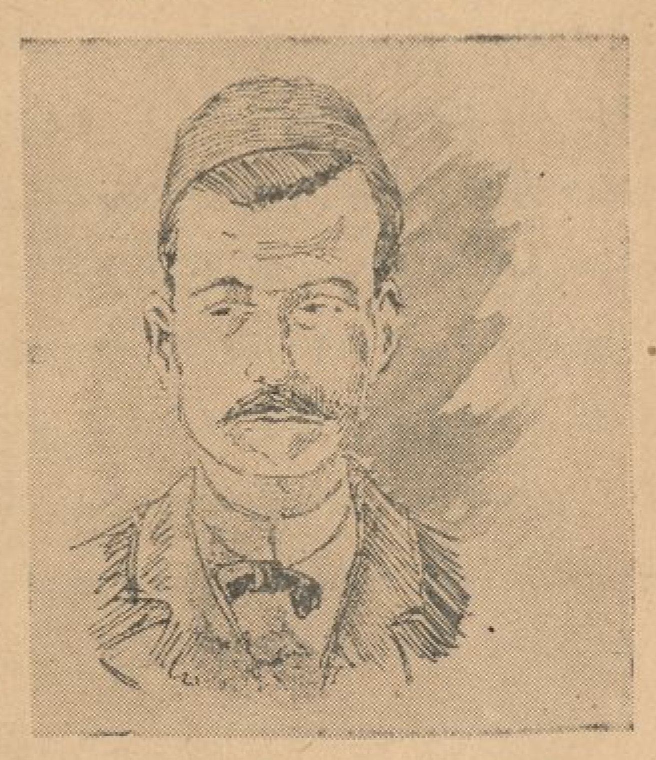
جميع الناس . واذا لم اجد دراهمي اشنق بعد ذلك نفسي .

وقد كتب المرحوم جرجي زيدان في « مشاهير الشرق » ان « مارون النقاش ضم اليه جماعة من اصدقائه الشبان النجباء الادباء وأخذ يعلمهم التمثيل والف لهم رواية « البخيل » فعلمهم ادوارها حتى اتقنوها ومثلوها في بيته ببيروت سنة ١٨٤٨ في ليلة حضرها قناصل المدينة واعيانها فأعجبوا بما شاهدوه من دقة التمثيل واتقان التأليف مع حداثة هذا الفن ، فشاع خبر ذلك حتى تناقلته الصحف الافرنجية . »

والواقع ان النقل والتأليف كانا واحداً في ذلك العهد ، فكما كان راسين منصرفاً الى نهب هوميروس واوربيدس وفرجيل وسنيكا وتاسيت وغيرهم ، وكان كورنيل جاداً في اقتباس « السيد » من اللغة الاسبانية ، ولافونتين يفاخر باستعاراته واخذه عن الاقدمين ليس مواضيع اساطيره فحسب بل طريقتها ايضاً ، ومولير يجاهر بقوله انه يأخذ ملكه حيثما يجده ، هكذا رجال النهضة الادبية في القطر العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد كانوا منصرفين الى النقل والاقتباس .

وكما ان احداً لم يلقب راسين ومولير وكورنيل بجفاري

القبور وناهي الجثث — وكان الاربعون خالداً او اعضاء الاكاديمية الفرنسية يذهبون الى ان التأليف والتقليد شيء واحد وان التفوق على الاقدمين يتوقف على الاجادة في



نجيب الحداد

تقليدهم — فلم يخطر لاحد ان يأخذ على نجيب الحداد مثلا نقله مسرحية « غرام وانتقام » عن « السيد » لكورنيل ، ومسرحية « حمدان » عن « هرناني » لفيكتور هوغو ، وقصة « غصن البان » عن قصة « رافائيل » للامرتين ، وهلم

جراً . فراسين وموليير وكورنيل ولافونتين من جهة ، وابطال الرومانتزم كهوغو ولامرتين واسكندر دياس من جهة اخرى ، كانوا سهولا واسعة الارجاء يحق لاي اديب ان يطأها ويصطاد فيها .

ولكن اذا حق لنا ان نقول ان كورنيل وراسين وموليير ولافونتين ابتدعوا في ما اتبعوا ، وخلقوا في ما سرقوا ، وانه لولا منقولهم لبقي الاصل مجهولا ، فلا يحق لنا ان نطبق هذه القاعدة على ادبائنا الذين نقلوا ذلك المنقول الى اللسان العربي . على اننا لا نستطيع ان ننكر ما كان لنشاطهم الادبي من الفضل على النهضة في ذلك العصر . فاقدام نجيب الحداد على ترجمة روائع الغرب بأرقى اسلوب كتابي عرف يومئذ ، وقيام اديب اسحق الذي ابتدع طريقة في الانشاء بليغة احسن فيها التطبيق بين الاسلوبين الفرنجي والعربي بمشاركة سليم النقاش في نقل المسرحيات الفرنجية الراقية وتمثيلها ونشرها ، احدثا حركة ادبية لم يسبق مثلها في العالم العربي وكانت فاتحة عهد خصب بالنقل والاقتباس نشأ عنه عهد خصب بالتفكير والتأليف .

واذا كان عهد اديب اسحق ونجيب الحداد عهد نقل واقتباس فقد كان عهد احساس مرهف في لغة مصانة من الابتذال . فاذا عمد اديب لنقل طرفة فرنجية الى لسانه فأول همه ان يُلبسها حلة قشيبة من البيان كهذه الجمل التي نقلها اديب اسحق عن الكاتب الفرنسي فولني :

Conserve - toi; instruis - toi; Modère - toi; vis pour les autres pour que les autres vivent pour toi .

ذاتك احفظ وتفقّه واعتدل

واحيَ للناس ليحيا الناس لك

او كهذه الجملة التي نقلها اديب عن فيكتور هوغو :

Tuer un homme dans un bois est un crime impardonnable ; tuer un peuple est une question .

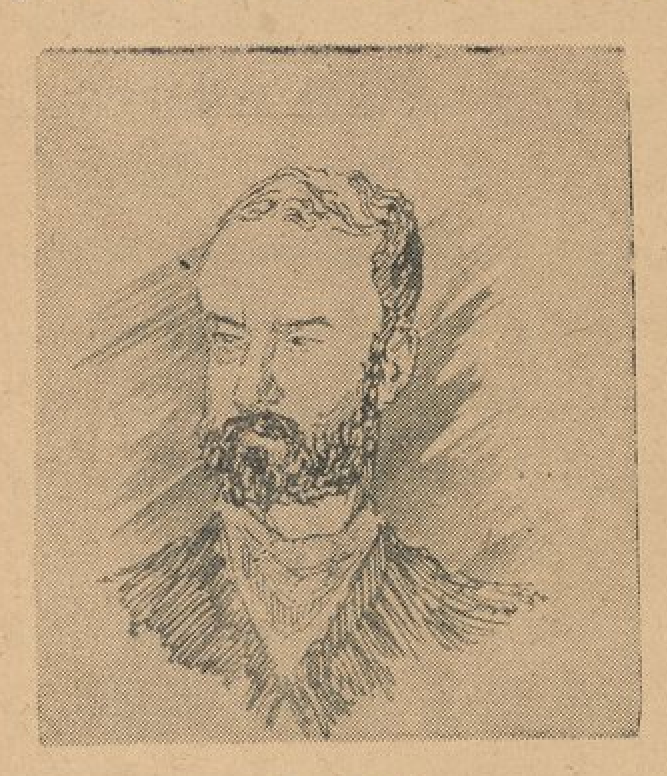
قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

ومتى علمنا ان نجيب الحداد سلخ شطراً كبيراً من حياته القصيرة في نقل قصة « الفرسان الثلاثة » لاسكندر دياس علمنا اي جهد كان يبذله ادباء ذلك العهد في نقل روائع الاجانب . واذكر ان المرحوم طانيوس عبده قال يوماً للشاعر

بشاره الخوري – وكنت حاضراً – ان نجيب الحداد بـدأ بنقل « الفرسان الثلاثة » وهو في سحرة الشباب وفرغ منها وهو في شرخه .

وعلى اثر ذلك العهد اقبل عهد التكليف والأتباع ، عهد



اديب اسحق

شوقي وحافظ ابراهـيم وولي الدين يكن وخليل مطران .
فالشاعر الشاعر من يحسن السير عـلى غرار فيكتور هوغو والفرد ده موسه . على ان اللغة لم تكن فقدت حياتهـا

بعد ، فهي لغة المتنبي وابي تمام والبحتري او الاحنف او بهاء الدين ، وهي لغة الجاحظ وابن عبد ربه والمسعودي وابن خلدون . فالرومانتزم الفرنجي لم يقتل البيان العربي . وما كان ادباؤنا في تلك الحقبة الا صورة مصغرة عن ادباء فرنسا في العهد الرومنطيقي .

ففي الثلث الاول من القرن التاسع عشر شغف ادباء فرنسا بالادباء الاجانب شغفاً لا رادع له ولا زاجر ، وراحوا يبثون الدعوة لهم مطرين فضائلهم مشيدين بعبقرياتهم ، فمن يريد ان يهتدي الى سر الشعر الصحيح فليقرأ « المهزلة الالهية » ، ومن يريد تجديد القصة فليقلد ولتر سكوت ، ومن يريد تجديد المسرح فليقلد شكسبير . وفي ذلك العهد كانت روسيا قد اعطت اول شعرائها اسكندر بوشكين وهو من جد عربي ولم يعش الا ثمانية وثلاثين عاماً ، فنبشه الادباء الرومنطيقيون وراحوا يحثون على الاقتداء به .

ولا نزاع في انه من الضرورة الاطلاع على ادب الاجانب للاستفادة من كنوزه ، ولكن الاستفادة من هذه الكنوز لا تفضي الى التخلي التدريجي عن السجايا الوطنية ، واختلاط المشارب وطرق التفكير لا يفقد امة فضائلها ومزاياها .

فاقتداء الادباء العرب في تلك الحقبة من الزمن بادباء فرنسا لم يفقدهم طابعهم العربي . وما كان تأثر شوقي بفيكتور هوغو مثلا لينسيه ديباجة المتنبي . ففي قوله :

ولقد اقول وادمعي منهلة   باريس لم يعرفك من يغزوك
تلدين اعلام البيان كأنهم   اصحاب تيجان ملوك اريك
فاضت على الاجيال حكمة شعرهم
وتفجرت كالكوثر المعروك
العصر انت جماله وجلاله
والركن من بنيانك المسموك
اخذت لواء الحق عنك شعوبه
ومشت حضارته بنور بنيك
وخزانة التاريخ ساعة عرضها
للفخر خير كنوزها ماضيك

في هذه الابيات كما في سواها من كل ما انتج شوقي تفكير فرنسي في قالب عربي ، بل في ارقى قوالب العرب . وقد يكون قول شوقي :

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدقُّ

ارقى ديباجة واقوى نفساً من قول الشاعر الفرنسي اوغست

باربيه عن الحرية :

Qui ne prend ses amours que dans la populace,
Qui ne prête son large flanc
Qu'à des gens forts comme elle, et qui veut qu'on l'embrasse
Avec des bras rouges de sang.

بوشكين

وهكذا حافظ شوقي كما حافظ سواه من ادباء تلك الحقبة على السجية العربية في تثقفه بثقافة الفرنجة .

قلت انه من الضرورة الاطلاع على ادب الاجانب

للاستفادة من كنوزه . فمعظم كتّاب العربية ينزعون في نهضتهم الحديثة الى قراءة التليد من ادمغة الغربيين واقتباس ما يرونه حسناً وملائماً البيئة التي يعيشون فيها ، في حين ان ادباء الغرب يحيطون علماً بالكثير مما ولدته عقول الاقدمين من اليونان الى العبرانيين الى اللاتين الى الفرس الى العرب ، ونرى في ثقافتهم آثاراً من تلك الثقافات مطبوعة بطابع نفوسهم الخاص ، ففي « اساطير الدهور » لفيكتور هوغو عرف طيب من التوراة والالياذة ، وفي « الفردوس المفقود » لملتون وحي مستمد من سفر التكوين ، وفي قصيدة لامرتين « سقوط ملاك أو آلهة لبنان » المتضمنة اثني عشر الفاً من الابيات وثبات متأثرة ببعض فصول من « تثنية الاشتراع » و « سفر الملوك الثالث » وبعض فصول من « سفر التكوين » ، وفي مطالع قصيدة « فوست » لغوتي شبه قريب بمطلع « سفر ايوب » .

ولا سبيل لنا ان ننكر ان الادب العربي لم يبلغ في أي عصر من عصوره منذ فجره الى اليوم ما بلغه الادب اليوناني او اللاتيني او العبراني . ففيمَ يشيح الادباء والمتأدبون في البلاد العربية عن تلك الذخائر الآلهية المدفونة في مطاوي

كتب اليونانيين واللاتين والعبرانيين ؟ فأية فلسفة تضاهي في صدقها وعمقها فلسفة ابن سيراخ ، واية شاعرية تضاهي في جمالها وروعتها شاعرية سليمان في « نشيد الاناشيد » وشاعرية ايوب في سفره ، واية شرائع أثبت واسمى من الشرائع الانسانية الجميـلة في بعض اسفار « تثنية الاشتراع » ؟

جاء في هذا السفر : « اذا حصدت حصادك في حقلك فنسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها انها للغريب واليتيم والارملة تكون . واذا خبطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان انه للغريب واليتيم والارملة يكون . واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه للغريب واليتيم والارملة . »

فهذه الشرائع السامية اوحت الى لامرتين اجمل مقطع في قصيدته « سقوط ملاك » فقال بلسان النبي الشيخ : « دعوا خبزكم على عتبة بيتكم للجائعين ، واتركوا بعض ثمار عـلى غصونها لعابري الطرق . »

وتكاد طرفة لامرتين هذه — وهي لا تخلو من اسهاب لا طائل تحته — تمتزج جميع فصولها باسفار التوراة . امـا فكرة القصيدة فقد استوحاها لامرتين من الآيتين الاولين من الفصل السادس من سفر التكوين وهما : « ولما ابتدأ الناس

يكثرون على وجه الارض وولد لهم بنـات رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا . »

وكان الشاعر الانكليزي توماس مور قد نشر في العام ١٨٢٠ قصيدة رمزية في « غرام الملائكـة » نبهت الشاعر الفرنسي الفرد ده فينيي الى قراءة التوراة فاذا به يطلع على الادب بقصيدته الكاملة « الوى » او اخت الملائكة » التي ترمز الى انتصار الشر على الخير .

استوحى الفرد ده فينيي قصيدته هـذه من الآية الثالثة عشرة من الفصل الثالث من سفر التكوين وهي : « فقال الرب الآله للمرأة : ماذا فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية أغوتني فأكلت » ؛ ومن الآية السادسة من الفصل السادس من سفر التكوين وهي : « فندم الرب انه عمل الانسان على الارض وتأسف في قلبه . »

وقال الشاعر الفرنسي في المقطع الاخير من قصيدتـه هذه : « كزنبقة لاطمها الهواء فحركت انداءها . » كأنه تذكر موت اوريال في النشيد التاسع من قصيدة « الانياذة » للشاعر اللاتيني فرجيل اذ جاء فيها : « وسقط ميتـاً فغمر

الدم جسده الجميل – رائعة الطبيعة – والتوى رأسه المثقل على كتفه كزهرة جميلة قطعتها شفرة المحراث فذبلت على الارض وماتت ، او كأعشاب نهكتها العواصف فحنت رأسها المثقل بالامطار . »

واستلهم ملتون ملحمته الخالدة « الفردوس المفقود » من سفر التكوين ، فهي اثنا عشر نشيداً تدور حول سقوط آدم وحواء . نرى الشيطان في الاناشيد الثلاثة الاولى عاقداً مجمع ابالسة للائتمار على العالم الجديد الذي خلقه الله ، الا أن الله يعرف بالخطة الجهنمية هذه فيعلن الملائكة سقوط الانسان ويصح عزمه على ارسال ابنه ليخلصه . وننتقل في الاناشيد الخمسة التالية الى جنائن عدن فنسمع حواء تطلع آدم على حلم أقلقها . وفي هذه الآونة يهبط الملاك رافائيل من السماء ويحذر آدم من فخاخ الروح الشريرة . على ان الشيطان ينسل في النشيدين التاسع والعاشر الى عدن ويستحيل الى حية . وعندئذ تبدأ التجربة وينتصر الشيطان . ولكن الانتقام السماوي لا يلبث ان يحول جميع رفاق الروح الشريرة الى حيات فيذهب القنوط عن آدم ويدعو حواء الى ملاشاة غضب السماء بالصلاة . وفي النشيدين الاخيرين نرى ابن الله

يضرع الى ابيه لكي يغفر خطيئة الرجلين الاولين فيقبل الله بذلك ، الا انـه يرسل الملاك ميخائيل ليقول لآدم وحواء انهما منفيان وان المرض والموت سيلحقان بهما بعد اليوم .

وهذا الموضوع العظيم الذي لا يقتصر على تاريخ أسرة او شعب بل يتناول تاريخ الانسانية منذ مدرجها الى أقصى عهد من عهودهـا الآتية ، مستوحى بجملته من هذه الآيات في الفصول الاولى من سفر التكوين وهي : « في البـدء خلق الله السماوات والارض . وكانت الحية أحيل جميـع حيوان البرية الذي صنعه الرب الآله فقالت للمرأة أيقينـاً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة ؟ ورأت المرأة ان الشجرة طيبة للمأكل وشهية للعيون وان الشجرة منية للعقل فـاخذت من ثمرهـا واكلت وأعطت بعلها ايضاً معها فاكل . فقال الرب الآله للحيـة إذ صنعتِ هذا فـانت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحش البرية ، على صـدرك تسلكين وتراباً تأكلين طول ايام حيـاتك . بعرق وجهك تأكل خبزك حتى تعود الى الارض التي أُخذت منهـا لانك تراب والى التراب تعود . »

وقد زين ملتون موضوعه هذا بجميع زهرات الشعر القديم

فاذا هو لا يزال واقفاً على قمة من قمم الشعر لا يأمل أن يرقى اليها الا القليل من البشر .

واذا عددت الروائع الخالدة التي استوحيت من الاقدمين فقد يستغرق ما يحضرني من اسمائها مجلداً ضخماً .

ينقلون ما هب ودب

لم يسبق لادباء العربية ان اقبلوا على نقل ما هب ودب من نتاج الغربيين ، والفرنسيين منهم بوجه خاص ، اقبالهم عليه في مستهل القرن العشرين . ففي اواخر القرن التاسع عشر كان ادباؤنا ينتقون متخير القصص والمسرحيات الفرنجية فينقلونها او يقتبسون منها ، اما في السنوات الاولى من القرن الحالي فقد تفشى في الكثير منهم داء النقل السهل طمعاً في الربح المادي بسرعة وعلى اهون سبيل ، حتى ان اديباً حقاً كطانيوس عبده ، رحمه الله ، لم يكن يجد اية غضاضة في ان يصرف ايامه ولياليه في تعريب قصص تلائم اذواق الجمهور كروكامبول (وقد اصدرها في سبعة عشر جزءاً) وبردليان وفوستا وما انتجته مخيلة زيفاكو واضرابه من ادباء المغامرات القصصية والانشاء التجاري ، وحتى شاعت النشرات الروائية

في الشرق كالمجلة الاسبوعية لنقولا رزق‌الله ، والمجلة الشهرية ، والراوي لطانيوس عبده ، ومجلة الجيب وغيرها ، وهي لا تحمل الى القراء الا سقط المتاع من صادرات الغرب ·

على انه فيما كان طانيوس عبده ونقولا رزق‌الله واضرابهما



طانيوس عبده

منصرفين الى تسلية الجمهور ، كان فرح انطون ومصطفى المنفلوطي واضرابهما منصرفين الى تثقيفه · وقليلون هم الادباء

الذين كانوا يجرؤون على التأليف كجرجي زيدان فيرجعون الى تاريخهم ويعتمدون على موهبتهم في ما ينتجون ٠

فيما كان طانيوس عبده يهبط الى مستوى الجمهور بنقله الفيكونت دي براجيلون وعقد الملكة والملكة ماركو ومونت كريستو وغيرها من القصص التي خرج بها اسكندر دياس عن حيز الادب شأن اوجين سو بأسرار باريس واليهودي التائه وسواهما من القصص التي امتازت بالخيال الرحب دون الانشاء الادبي الرفيع ، كان فرح انطون يعمل على رفع مستوى الجمهور بنقله بولس وفرجيني والكوخ الهندي وأتالا وتاريخ المسيح وسواها من المؤلفات الفرنسية المشهورة بقوامها الادبي وهدفها الانساني ، وكان المنفلوطي يشخص الى الهدف نفسه بنقله صدراً وافراً من متخير القصص والاقوال الفرنسية بتلك الديباجة المشرقة التي اشتهر بها ٠

ولا اجد هنا بداً من ابداء ملاحظة وهي ان القصص الشعبية التي نقلها طانيوس عبده وامثاله الى اللسان العربي لم تخلُ من فائدة كما انها لم تخل من ضرر ٠ فقد كان لهذه القصص المستهوية اثر كبير في حمل الجمهور على القراءة وفي اثارة جوانب نفسه بما تنطوي عليه من الاغراض الاجتماعية

والسياسية . على ان من هذه الاغراض ما اساء الى التاريخ بتحريفه من جهة والى الآداب من جهة اخرى . فمعظم القصص الشعبية التي نقلت الى اللسان العربي مشحون بما يقذر



مصطفى لطفي المنفلوطي

الحب وينسب الى الملوك ورجال الكنيسة جميع انواع الجرائم والمخازي . وربما كان لهذه القصص اثرها السيء في الآداب العامة ويد في البؤس الادبي والثقافي الذي لمس في ذلك العهد .

ولم يكن النقل والاقتباس مقتصراً في ذلك الزمان على الناثرين بل كان يتعداهم الى الشعراء . واليكم مثالا من ارتفاع الكلفة بين شعرائنا وشعراء الفرنجة : قال المرحوم الياس فياض في ديوانه انه دعي الى التحرير في احدى الجرائد



فرح انطون

المصرية فما بلغ ظهر الباخرة حتى تنشق نسيم الحرية فخيل اليه ان العدل والامن والحرية والمساواة والاخاء والشرف قد

هجرت المدينة معه ، ورأى شبح الذل واقفاً على الشاطىء مستهزئاً باولئك المهاجرين الكرام ، فنظم قصيدة ذكر فيها ما قاله له « العدل » و « الامن » و « الحرية » و « المساواة »



اسكندر دياس

و « الاخاء » و « الشرف » ، وختم قصيدته بقول « الذل » :

ايها النابذون عنهم بعيدا وطناً صار اهله لي عبيدا
قد اتيتم بالهجر امراً حميدا فبلاد يَرى بها الذلُّ رزقا
هاجروها ، اما انا فسأبقى

والواقع الذي لا نزاع فيه ان الشاعر الياس فياض ما بلغ ظهر الباخرة حتى تذكر قصيدة لفيكتور هوغو في « العقوبات » Les Chatiments نظمها وهو منتقل من فرنسا الى منفاه في جرسي . فقد تصور الشاعر الفرنسي في قصيدته ان جميع الفضائل قد هجرت فرنسا معه الا الذل الذي بقي فيها ، وختمها بقول الذل : Moi je reste ! . وقد يحق لنا ان نتساءل : أفي ذلك الزمان الذي كان لبنان يرتع فيه ببحبوحة « الامتيازات » يهاجر العدل والامن والحرية والمساواة والاخاء والشرف الى الارض التي قال فيها حافظ ابراهيم :

ثلث قرن إلا قليلا نعاني
ما يعاني من هونه كل عبد ؟

واذا قال قائل ان ارض الولاية ، ارض بيروت السورية ، لم تكن في ذلك العهد حرة كأرض لبنان فنقول له ان ارض مصر لم تكن اسعد حظاً من ارض سوريا . وقد بقي شوقي الى الامس القريب يلمع الى ذلك بقوله :

وعلينـا كما عليكم حديد تتـنزى الليوث في قضبانـه

واذا نحن رجعنا الى القصائد التي بنى عليهـا شعراء تلك الحقبـة شهرتهم الادبية نرى معظمهـا منحولا عن شعراء الفرنجة ٠

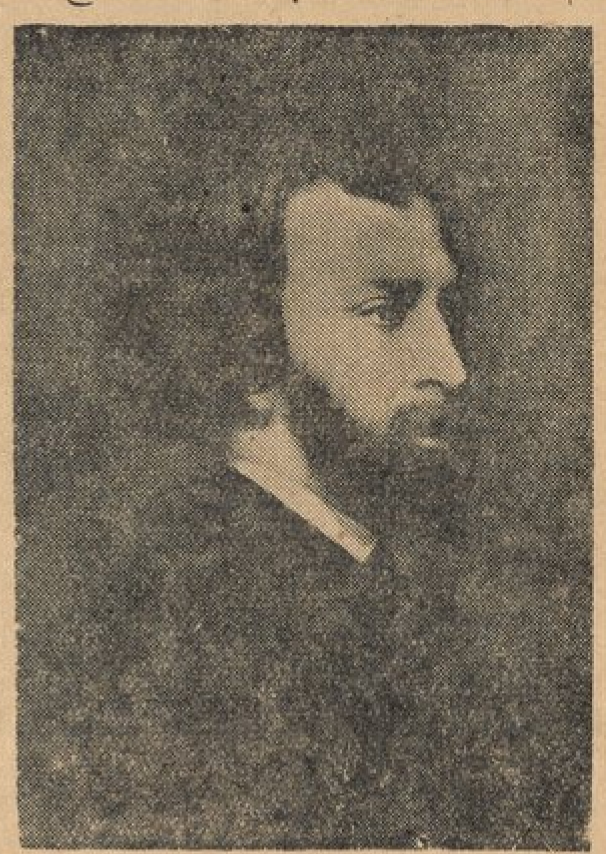


الياس فياض

ولا نريد بهذا ان ننكر فضل هؤلاء الادباء ، فقد كانوا فاتحة حسنة لهذا القرن بخروجهم في حلبـة الشعر على غفلة القرن التاسع عشر ، وان قصروا في حلبة النثر وفي التوسع

الفكري عن بعض جهابذته كالشدياق واليـازجي واديب اسحق والحداد ٠

وقد قلنا فيما سبق لنا قوله أنه اذا حق لنـا ان نلومهم فعلى كونهم شهدوا خلال الحرب الكبرى اوجع مأساة عرفها



الفرد ده موسه

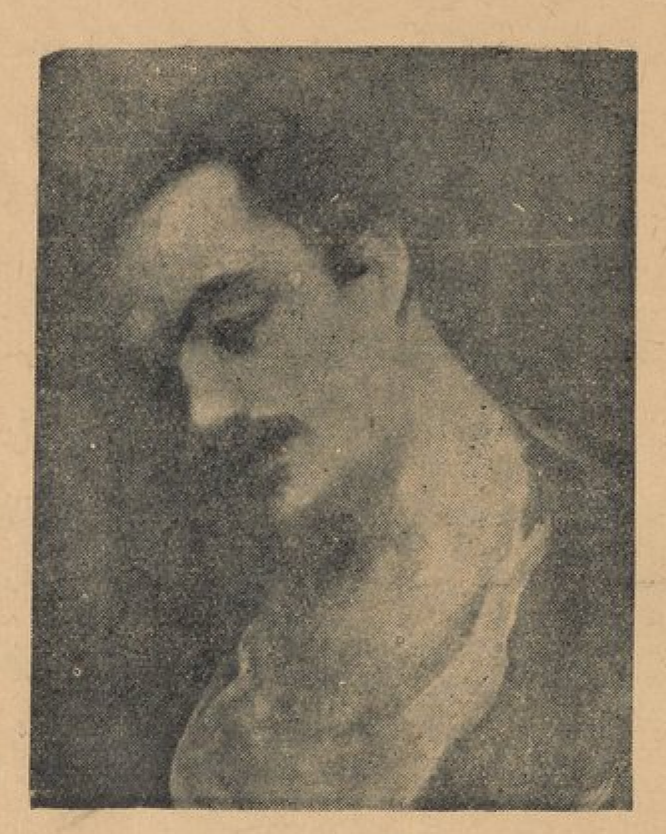
التاريخ ولم نشهد لاقلامهم منظراً موجعاً من هـذه المأساة ، اللهم الا بعض قطع لا قيمة لها ٠ أيمرّ بنا المنجل الاسود على

شفرتــه المقوســة كجنــاح الموت سحن الجوع والمرض والذل والظلم والحقد ولا يقوم فينــا شاعر او ناثر يغمس ريشته في هذا البؤس ؟ ألا يقوم فينا شاعر او ناثر اجترّت عيناه حصيد تلك الشهادة فيطبع على جبــين التاريخ الادبي لوحة خالدة مما انطبع على عينيه ؟

وفي ذلك الزمان كان ادباء العربية في المهجر الامــيركاني يعنون بالفكرة والالوان والموسيقى اكثر مما يعنون باللغــة وقواعدها ، وكان موقف ادباء الاقطار العربية منهم كموقف البارناسيــين الفرنسيــين مــن بعض ادباء العهــد الرومنطيقي على وجه التقريب . في العام ١٨٦٦ عندمــا اذاعت المدرسة البارناسية مبادئها راحت تنحي باللائمة عــلى الشعراء الذين يهملون العناية باللغة وقواعد النظم فيسلكون مثلا مسلك الفرد ده موسه الذي كان له من عبقريته ما يشفع بقوافيه المضطربة . ومعلوم ان قافية « Passer » مثلًا كانت تزدوج في شعر ده موسه بقافية « Chercher » وقافيــة « Mêler » بقافية « Donner » وهلم جرا .

سوى ان الشعراء البــارناسيين كجوزي ماريا ده هريديا وبودلير وليكونت ده ليل وفرانسوى كوبيه واضرابهم كانوا

يرتفعون بقوة افكارهم وجمال صورهم الى مستوى الصياغة والمتانة اللتين كانوا يطالبون بالتمسك بهما فلم يهبط الفني معهم عن مرتبة الشاعر ، خلافاً لادبائنا الذين كانوا يأخذون على



جبران خليل جبران

جبران والريحاني وعريضة واخوانهم من رجال الرابطة الادبية في المهجر ضعف لغتهم ونبذهم القواعد المأثورة في النظم والنثر . والواقع ان الناشئة الادبية لم تجد في صحة الانشاء

ومتانته عند ادبائنا ما يعوض عن هزال افكارهم وصورهم ، فشخصت بأرواحها وقلوبهـا الى ادبائنا الآخرين في المهجر الاميركاني وقطعت الى الابد بينها وبين ذلك الادب البطريركي او السلطاني الذي تفشى قبل الحرب الكبرى وفيها ، هـذه الحرب التي عطلت الصحف الا المملوكة منهـا وغضت شرف الفكرة الحرة في الكثيرين من رجال القلم ، فأصبح الادب سلعة تباع على ابواب الحكام بخوراً وقرابين .

وسرعان ما تفشى في هذه الناشئة ادب لفظي لا يغتفره اي نبوغ او اية موهبة ، واذا بنا نتجه الاقلام يغرق في سيل من هذه الكلمات الجبرانية : عرائس الليل ، يستحم في النور ، اصابع الفجر ، رياح الكهوف ، خشوع الاودية ، ذيل الضباب وسواها ممـا ابتدعته مخيلة جبران في عرائس المروج ، والاجنحة المتكسرة ، والعواصف وغيرها .

الغموض دخيل على الادبين

من الامور الراهنة ان الامم التي تسبق اخواتها في مضمار التجدد وينتهي بها الجهد الى بلوغ الذروة لا يسعها الاستقرار على حال لانها تعودت التطور والانتقال فتشخص الى هدف آخر من غير ان تقطع بين ماضيها وحاضرها ، بينا الامم الاخرى تسعى الى التشبه بها في اطوارها السابقة . سوى ان الحرب الماضيــة (١٩١٤ — ١٩١٨) اسفرت في الادب عن ظاهرة لا عهد بمثلها . ففيما كان ادباء العربية يحاولون التمثل بنهضـة الفرنسيين في مطلـع القرن التاسع عشر وفي منتصفـه كان الفرنسيون يجسّون في الادب طرقاً جديـدة تاركين وراءهم ماضيهم المجيد اثراً من الآثار المقدسة لا قاعدة للمستقبل ينسجون على مثالها . وقد يكون مردّ هذه الظاهرة الى ان الفرنسيين الذين بلوا اهوال الحرب الكبرى عزفوا عـن الماضي لهوله

وبالغوا فقطعوا كل ما يربطهم به رجاء ان يبنوا عالماً جديداً اضمن سعادة وأوفر رقياً . وكان الادب قسطه من هذه القطيعة فتشابكت في ميدانه الآراء وتشعبت المذاهب وكثر المؤسسون والبناة . وسرعان ما رأينا الفوضى تحتل مكانها فتطغى



محمد حسين هيكل

اللاشخصية على الشخصية ، والاهواء على الحقايق ، وتذوب التقاليد ...

واذ كان من مألوف الادباء العرب السير على غرار الاوروبيين ، والفرنسيين منهم بوجه خاص ، فقد خيل الى بعضهم الكثير انه يستمرىء كل ما يصدر عن الغرب ، ولو

كان غريباً ...

وراجت سوق النقد ، فطلعت علينا طائفة من النقادين المتهوسين تقول بضرورة التمثل بنهضة الغرب في « الادب الحي ؟ » وراحت تشيد بالنظريات الحديثة (كأن الادب متاع الى حين ، يتبدل تبدل الحذاء ،) فيطري بعضها فضائل الادب المكعّب (الكوبيسم) ، وكان هذا اولى بوادر السنوبيسم في مصر ولبنان على الخصوص . ويطري بعضها الآخر مزايا الادب الواقعي (الرياليسم) ، او الادب الانطباعي (الامبريسيونيسم) ، او الادب الاستقبالي (الفوتوريسم) ، او الادب الرمزي (السمبوليسم) . واصبحت هذه « الايسم » دلالة على اتساع معارف النقادين في الادب .

ولم يكتف النقاد بهذا بل راحوا يقيسون الادب ويزنونه على نحو ما يفعل الغربيون الذين ضاعوا في مجاهل اوهامهم ، فكل نقاد لا يحمل ميزاناً وبيكاراً لا يدرج في عداد المثقفين ، وكل مقال لا يسند بالمكاييل والموازين لا يحظى باحترام المستنيرين من الادباء والمتأدبين !

ولكن الاقلام القوية لم تحمل هذه المزاعم على محمل الجد ، ولم يسع الاقلام الضعيفة تطبيقها ، فبقي التيار الادبي

جارياً مجراه الرومنطيقي حتى في أشد الادباء تحمساً للنظريات الحديثة . ففيما كان بعض الادباء لاهياً بفقاقيع النظريات هذه كان بعضهم الآخر منصرفاً الى خلق أدب وطني مستوحى من الجو والتربة . وقد كان المصريون اسبق مـن السوريين



محمود تيمور

واللبنانيين في هذا المضمار ، فأصدر الدكتور محمـد حسين

هيكل قصة « زينب » ، وفيها صور صادقة عن الحياة المصرية ، واصدر الاستاذ محمود تيمور قصص « الوثبة الاولى » و « ابو علي عامل ارتست » و « الاطلال » . وهبّت من مصر لوافح ادب فيه يقظة وفيه حياة قوامه العقاد والمازني



توفيق الحكيم

وطه حسين وتوفيق الحكيم وسلامه موسى ومنصور فهمي وغيرهم . وعلى ادب هؤلاء جميعاً تغلب المسحة الرومنطيقية ويغلب الوضوح .

وفي مستهل السنوات العشر الاخيرة قام رهط من ادباء

لبنان يعالج القصة ، وكان الاستاذ كرم ملحم كرم ، منشىء « الف ليلة وليلة » ، اول من نفخ في بوقها ، واذا بالاستاذ توفيق يوسف عواد يضع « الصبي الاعرج » ويتبعها بـ« قميص الصوف » ، والاستاذ خليل تقي الدين يصنف « عشر قصص » و « الاعـدام » . سوى ان الاسلوب الرومنطيقي واللون الرومنطيقي والانشاء الرومنطيقي لم تظهر واضحة جلية كما ظهرت في « سيـد قريش » الـتي سبق الاستاذ معروف الارناؤوط ان اصدرها في اربعة مجلدات ضخمة . ففي هـذه القصة البليغة يبدو اثر شاتوبريان واضحاً جلياً ، فهي في لغتها وقوامها الانشائي واسلوبها اشبه ما تكون بـ « الشهداء » او بـ « آخر ايام بني سراج » .

وفي هذه الاثنـاء قامت في مصر وفي لبنان حركة تمركزت في الشعر على الخصوص ، يغلب فيها الغموض عـلى الوضوح ، وتغلب فيها الزخارف اللفظية على المعاني . وما عتم الامر ان اخذت الناشئة بهذه الخدعـة الموسيقية البراقة ، والناشئة كالقبّرة يستهويها البريق ، فانطلقت تعبّ من معينها وتسرف حتى الشبق ، واذا بأدب لفظي آخر يحتل مكاناً له في دنيا الشعر .

والواقع ان الغموض في الشعر دخيل على الادب العربي ، فهو من الكتب لا من الجو ، فجو الشرق صريح مشرق فلا مبرر لهذا الغموض في خيال شعرائه . ويقيننا انه دخيل على الادب الفرنسي ايضاً ، فجو فرنسا صريح مشرق ، وما



توفيق يوسف عواد

كان شعراؤها ، ما كان رونسار وكورنيل وراسين وهوغو ولامرتين وموسه وفيني وليكونت ده ليل وبودلير شعراء غامضين . وما كان فرلين غامضاً ولا رنبو . ويغلب على

الظن ان ملارمه وبول فور واضرابهما من الشعراء الفرنسيين الرمزيين استصدروا ذلك الطابع المبهم الذي اتسمت به صورهم وافكارهم من الشمال حيث الضباب والصقيع ، فهم يعبدون في



خليل تقي الدين

احيان كثيرة عن افكار نجدها في الشعراء الانكليز كشيلي وبراوننغ .

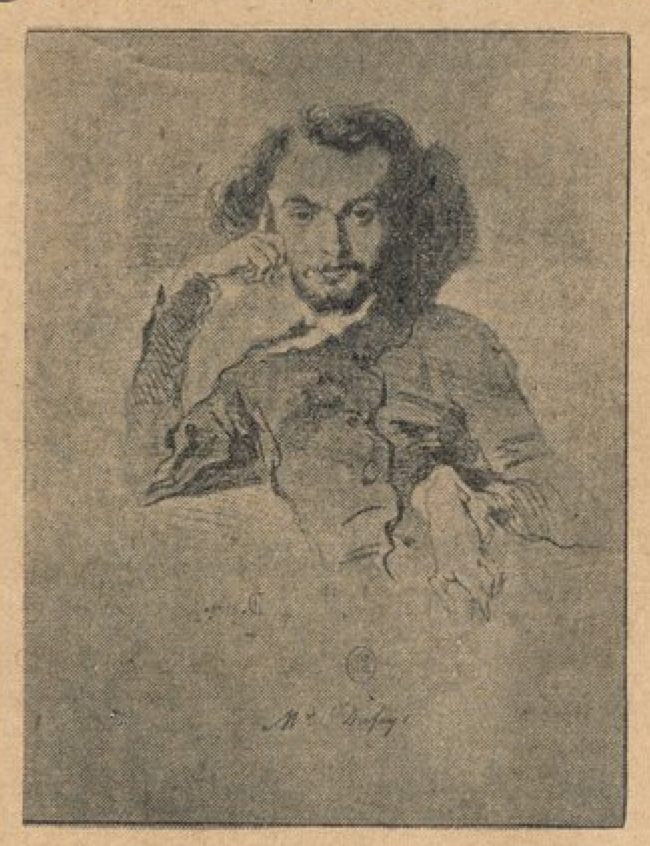
ونحن لا ندري اي مبرر لمثل هذا الغموض في شعرنا ، ولا يسعنا الا ان نأسف لتلك الغارة الاجنبيـة على صعيدنا الادبي وتلك السيطرة على خيال الجيل الجديد . ومما لا شك

فيه ان اعجاب المتهوسين ببعض شعرائنا المستصدرين يعكر على الناشئة سلامة تفكيرها ، ويمنعها من الوصول بقدم رشيقة نشيطة الى السنى والوضوح ، ومن البقاء في نطاق تقاليدها الوطنية ٠

لسنوات خلت استشهد اديب عربي بقول الصابي : « أفخر الشعر ما غمض عنك فلم يعطك الا بعد مماطلة منه ٠ » ولا يستفاد من هذا القول ان الغموض قاعدة في الشعر كما يدعي اصحاب هذا المذهب ، فأفخر الشعر ليس ما غمض عنك ، فقد تغمض عنك صورة ليست من الشعر في شيء ، وقد يماطلك البيت طويلا لتخلص منه الى فكرة سقيمة ٠ خذ ملحمة « اورشليم المنقذة » للشاعر لوتاس واقرأها بكاملها تجد بعد مماطلة ان ما غمض عنك في هذه الملحمة المشهورة بالغموض دون ما وضح لك شعراً ٠ ولكن خذ ملحمة « الاينياذة » لفرجيل واقرأها بكاملها فلا يماطلك فيها بيت وهي من اروع وأرق ما اعطت العقول والقلوب البشرية ٠

وما الغموض الا ضرب من التعبير ، ففي تعابير بسكال الواضحة افكار لا تقل روعة وحكمة وشاعرية عما في تعابيره

الغامضة . هذا الى ان الغموض والوضوح في التعبير يتفاوتان بتفاوت مراتب الافهام ، فقد يغمض عني ما لا يغمض عنك اذا كنتَ اوسع مني ادراكاً واصفى ذهناً . وليس الغموض لزاماً للايجاز كما يخيل الى بعضهم . فالكاتب البليـغ يلزم



شارل بودلير

الايجـاز في التعبير والوضوح في المعنى معاً ، وقد يرمز من غير ان يبهم . واذا صح القول بأن ثمة تعابير تعلو على الافهام



ستيفان ملارمه

الضعيفة فلا يصح القول بأن هذه التعابير غامضة · ومع هذا فقد نقبل استعمال كلمة « غموض » للتعبير عن فكرة تستلزم بعضاً من الاجهاد لتفهمها ، على اننا لا نقبل ان يتخذ هذا « الغموض » قاعدة في الشعر ..



ارثور رنبو

ويؤسفنا ان نرى بعض الشعراء ممن يدّعون السير على غرار ملارمه وفرلين وفاليري يطلقون خيالهم في دياميس لا يرون فيها شيئاً ويتشبثون في التعبير عما لا يرون ولا يفهمون ،

ويحاولون اقناعنا بانهم انما يعبرون عن شيء يحسونه في اقصى نفوسهم ولا يستطاع ابرازه واضحاً صافياً . فالذي يحسونه في اقصى نفوسهم شيء كامن في نفوسهم ، ولكنهم لم يؤتوا قوة



الليل كما يراه الادب الغامض

الغوص الى اعماق هـذه النفوس ليروا هذا الشيء . وقد يسمعون احياناً اصواتاً صادرة من اعماق كيانهم ولكنهم لا يفهمونها . وليس هذا دليلا على ان هذه الاصوات لا يستوي

لها معنى ، فجوهر النفس صاف، ولغة النفس واضحة ، غير ان ما يحيط بهذه اللغة من الطفيليات الناشئة عن ضعف ما في الجهاز البشري يخرجها خليطاً من التشويش والابهام .

وصفوة القول ان النفاذ من الحياة في المبهم الغامض للتعبير عنه بلغة واضحة شيء ، ومحاولة النفاذ الى هذا المبهم الغامض للتعبير عنه بلغة مبهمة غامضة شيء آخر . ويقيننا انه لولا ذلك الوضوح المشرق في الفكر الفرنسي لما كان للادب الفرنسي ذلك الذيوع العظيم في مشارق الارض ومغاربها . ويقيننا ايضاً ان الاتحاد الفكري الوثيق بين فرنسا والشرق يقوم على حقيقة طبيعية راهنة هي ذلك التشابه بينهما في الجو والتربة .

الادب العربي في نهضته المباركة

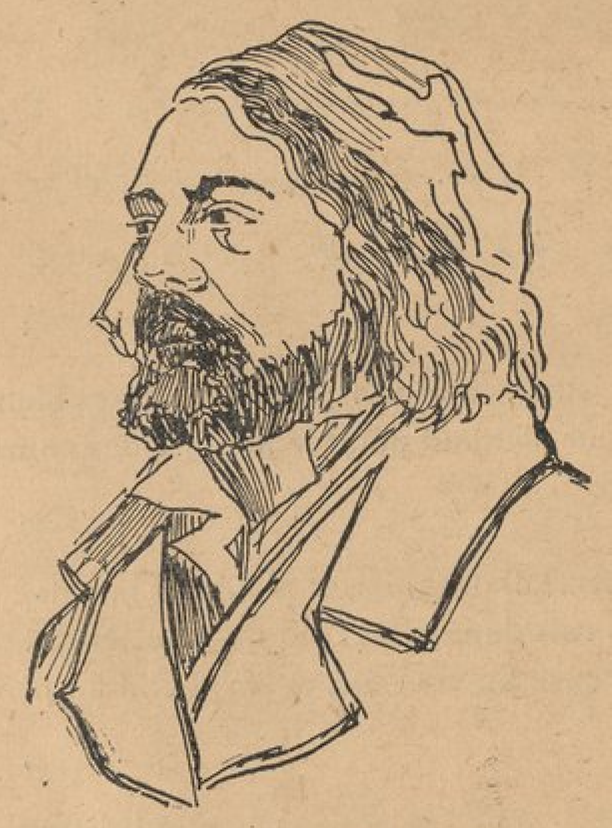
مما لا نزاع فيه ان الادب الفرنسي في المئة السنة الاخيرة لم يسده سيادة قوية الا مجريان او اتجاهان هما حركة الادب الرومنطيقي وحركة الادب الواقعي . وهذه الاخيرة ظهرت في القصة على الخصوص وكان مؤسسها غوستاف فلوبير صاحب « مدام بوفاري » . ثم تنوعت هذه الحركة فكانت « الواقعية المتحجّرة » التي تمثلت في ده موباسان ، فهذا القصّاص كان يصور الواقع تصويراً شمسياً غير آبه للاحاسيس وللعوامل النفسية . وكانت « الواقعية المتطرفة » التي تمثلت في اميل زولا ، فهذا القصّاص كان يستعمل الكلمات العنيفة والمباشرة لكي ترتسم الصورة الدامية واضحة جلية للعين . وكانت « الواقعية الفنية » التي تمثلت في الاخوين ادمون وجول ده غونكور ، والواقعية الخيالية التي تمثلت في الفونس

دوده ٠

اما في الشعر فقـد تمثلت الواقعية في تيوفيل غوتيـه ، وتيودور ده بانفيل ، وليكونت ده ليل ٠ وهذا الاخـير ابدع المدرسة البارناسية التي ضمت امثال هريـديا وسوآي برودوم وفرانسوى كوبه ٠ وليست البارناسية سوى لون من ألوان الادب الواقعي ٠ والى الادب الواقعي ينتسب شارل بودلير ٠ على ان بودلـير الذي اراد ان يصور عصره كما هو كان واقعياً على طريقة المصور رامبران ، فأظهر لنا الواقـع — آلام الحياة واشجانها — مذهّبـاً بنوع من النور المثالي ، غائماً في الوان ليلكية ، في ألوان غامضة مشرقة تنضح بالسحر والفتون ٠ وكل ذلك في لغة متينة ، عذبة ، كلاسيكية ٠ في لغة خاصة نقية ، لا تنبو فيها كلمة عن موضعها ٠ في لغـة كأنها لغة بوالو في القرن السابع عشر ٠

ثم جـاءت الرمزية فلم يقسط لها في شيء ممـا قسط للحركتين الرومنطيقية والواقعية ، فهي لم تسد الادب ، ولم تخلّف اية رائعة ، ولم تعش طويلا ٠ ذلك ان الرمزيين كانوا من جهـة يفتقرون الى الفكرة ويحجبون فقرهم بالظلمـات والضبـاب ، ومن جهة اخرى لا يعبأون كثـيراً بالنحو

والعَروض . وكان كل همهم ان يأتوا بكلمات مغوية وبتعابير يتعمدون بها الشواذ . فلا عجب اذا لم يعش من شعر اساتذتهم كفرلين وملارمه وموره‌يا الا ما كان مستقيم



تيوفيل غوتيه

التركيب ، جليّ الصورة ، واضح التقاسيم ، منسجم الالوان .

قبول فرلين يعطي الشاعر حق الاعراب عن فكرته او

عن شعوره بالاسلوب الذي يراه ادعى الى اخراج هذا الشعور و تلك الفكرة . ولذلك نرى « الاهواء » الموسيقية تحتل مصارع ابياته الا التي عاشت منها ، وتطغى على العَروض والتراكيب . فمهمة الشاعر هي ان يحلم لا ان ينظم ، وان يغنّي لا ان يكتب . ولكن ما دامت الموسيقى تغني عن الشعر فما الفائدة من وجود الشاعر ؟ واذا كانت مهمة الشاعر ان يلحّن لا ان يتكلم فأية قيمة تبقى لشعر كورنيل :

Je suis jeune, il est vrai ; mais aux âmes bien nées
La valeur n'attend point le nombre des années.

او لشعر راسين :

Apprenez, roi des juifs, et n'oubliez jamais
Que les rois dans le ciel ont un juge sévère,
L'innocence un vengeur, et l'orphelin un père

او لشعر موسه :

Les plus désespérés sont les chants les plus beaux,
Et j'en sais d'immortels qui sont de purs sanglots.

او لشعر الشريف الرضي :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

او لشعر جميل بثينة :

يموت الهوى مني اذا ما لقيتها
ويحيا اذا فارقتها فيعود

... فلا وابيها الخير ما خنت عهدها
ولا لي علم بالذي فعلت بعدي

وما زادها الواشون الا كرامة
علي وما زالت مودتها عندي

او لشعر ابي نواس :

اذا التقى في النوم طيفانا عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العين ، فما بالنا نشقى ويلتذ خيالانا

او لشعر عبد الرحمن الاربلي :

كنت مشغوفاً بكم اذ كنتمُ
شجراً لا تبلغ الطير ذراها

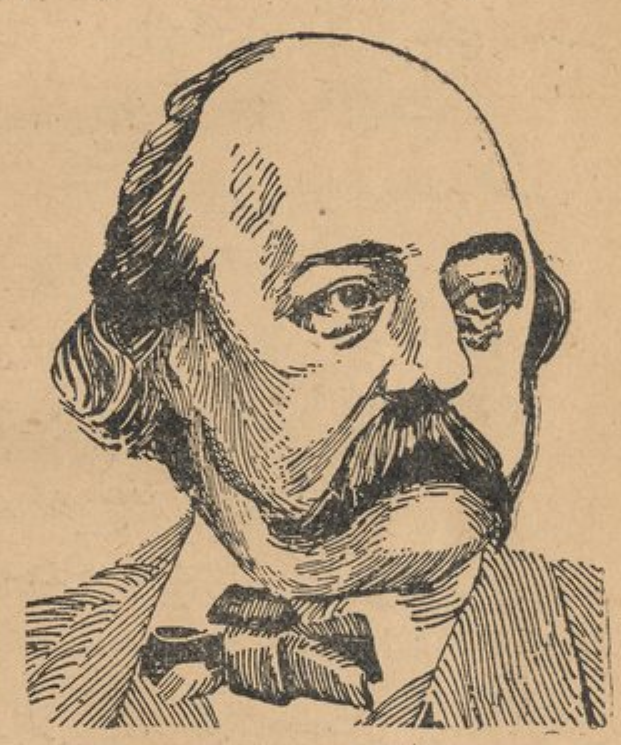
... فتراخى الامر حتى اصبحت
هَملاً يطمع فيها من يراها

... لا يراني الله ارعى روضة
سهلة الاكناف من شاء رعاها

او لشعر الشعراء من هوميروس الى فرجيل ، ومن امرىء القيس الى خليل مطران ، ومن شكسبير الى كبلنغ ، ومن

دنتي الى دانونزيو ، ومن رونسار الى بودلير ؟

وليس ابعد عن فوريّة فرلين من فن ملارمه المثقف المتروّى ، هذا الفن الذي يتعمد للقارىء خلق اسباب تحمله



غوستاف فلوبير

على التأمل ، وتمضي به في مهامه من الاحلام ، باعرابها عن مجموعة من الايحاءات الذاتية في تآلف من الكلمات النادرة مركبة بطريقة ذاتية ايضاً ، فيصبح الشعر احجية تحتجب وراءها اغراض سرية او اهداف غير منظورة .

واني لاتساءل كيف يتمكن الشعراء ، بمثل هذا الاسلوب او هذه الطريقة ، ان يكتبوا في المستقبل ملحمة هذه الحرب او ان يعبروا عما يضطرب في نفوسهم من الاغراض الاجتماعية ؟ واذا قيل ان النثر قد وجد لهذا الغرض فنقول ان الالياذة ليست اذاً من الشعر ، ولا الشاهنامه منه ، ولا الفردوس المفقود ، ولا المهزلة الالهية ، ولا ما كتب الشعراء من هوميروس الى فرجيل ، ومن امرىء القيس الى خليل مطران ، ومن شكسبير الى كبلنغ ، ومن دنتي الى دانونزيو ، ومن رونسار الى بودلير !

وبين فرلين وملارمه يقوم مورهيا ، فقد جمع هذا الشاعر الانفعال الحساس الى الانفعال المثقف ، وخلص من الطريقة الرمزية المترددة بين فطرية فرلين ونظرية ملارمه الى الطريقة الكلاسيكية .

وما عتم الامر ان اخذت الرمزية تعود الى الاصول الرومنطيقية ، وراح الرمزيون يحذون حذو جيرار ده نرفال وبودلير في التعبير عن اعمق ما في باطن الانسان ، عن ادق انفعالات الحس ، عن حياة الروح .

وهكذا عادت الرمزية في تلاميذ الرمزيين الى الحقيقة

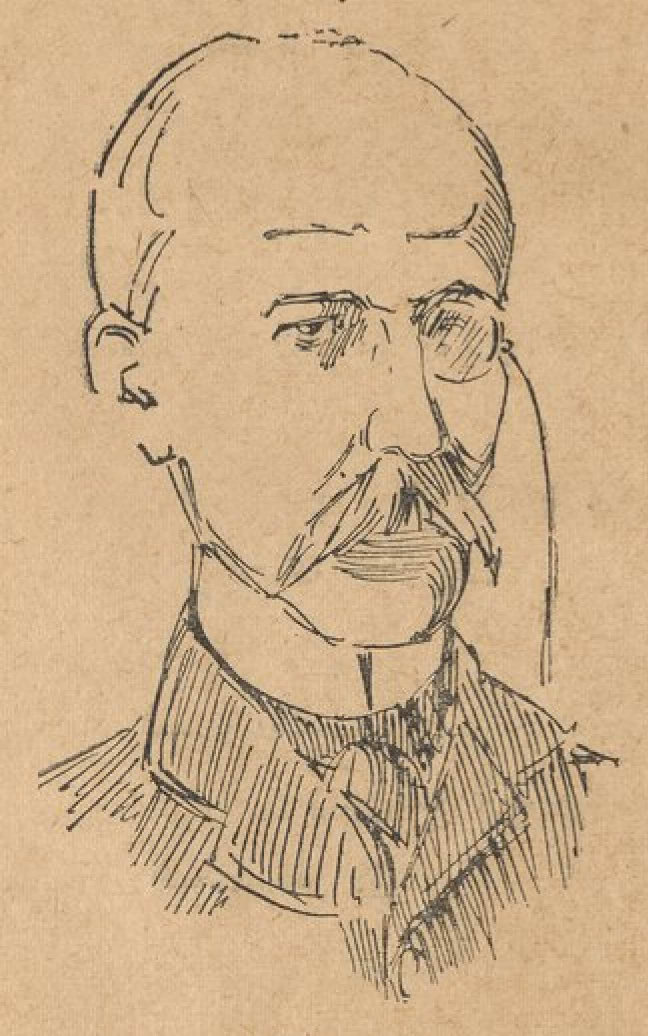
الابدية بعد ان حاولت فصل الفن عن الحياة . فقد خيل الى الرمزيين في بادىء الامر ان السبيل الى التعبير عما قد لا يستطاع التعبير عنه بالكلام ، عن اعمق وأدق ما يختلج في النفس البشرية ، انما هو في تحرير الشعر من قواعد العروض الاساسية ، والانشاء من تقاليده التاريخية ، فكانوا فوضويين بدل ان يكونوا مصلحين ، والفوضى من مبادىء التفكيك لا من مبادىء الابداع .

وصفوة القول ان المؤلفات التي صدرت عن النظريات ذهبت واضمحلت ، فالنظريات تزول اما الجوهر فيبقى .

وكما ان اثنين واثنين اربعة في كل مكان هكذا الحقيقة فهي حقيقة في كل مكان . فالحركة الرمزية التي تسربت الى الادب العربي في بعض الاقطار العربية (وكان اول النافخين في بوقها الدكتور اديب مظهر حوالي سنة ١٩٢٦) لم تعش طويلا ولم تخلف اي اثر جليل .

كان للموجة الرمزية التي طغت على ادب الفرنجة في النصف الاخير من القرن الفائت اثر سيء في توجيه الشعر ليس في اوروبا فحسب بل في بلادنا ايضاً ، فقد انتزعت هذه الموجة الحس من القلب ووضعته في الدماغ والعين ، فصار الشاعر

يفكر ويرى أو يخيل اليه انه يفكر ويرى ، وتمركز شعره في التصوير والتصور ، أما القلب فسقط عن المرتبة الاولى الى



هنري ده رينيه

المرتبة الثانية ، وما لبث الشاعر ان هجره لانهماكه بالتفكير والزخرفـة فجف عصيره « لقلة الاستعمال » واصبح الحب

والحنان يرتديان في قلم الشاعر معطفاً غليظاً .

وتطورت هذه الحالة الشعرية في ادب شعرائنا في المهجر الاميركاني فراحوا ينفحوننا بروحانية طغى عليها التفكير الفلسفي الصوفي . وما لبثت هذه الروحانيـة ان طغت عليهم جميعاً كأنهم تأثروا بعضهم بعضاً ، حتى اذا سكت صوت المدفع في الغرب وانعتق هذا الشاطئ. سمعنا الاوركسترا الروحانية الصوفية تعزف أنغاماً متشابهة توقيعاً وتفكيراً . فاذا قال جبران :

ليس في الغابات راعٍ لا ولا فيها قطيع
فالشتا يمشي ولكن لا يجاريه الربيع

قال ميخائيل نعيمه :

تناسي زمان الصبا والشباب
وسوقي مع الريح جيش السحاب
وقولي : أفي السحب قطر فتي
وقطر تقادم عهداً فشاب
أليس الشباب ، أليس المشيب
سحاباً ونحن دموع السحاب ؟

وقال رشيد ايوب :

سمعت همس القلب في ليلة ليلاء قد ساد عليها السكون
ومهجتي عند السهى سائحة
فقلت : « ماذا ؟ » قال : « عهد الهوى »
الله كم مرت عليه سنون
كأنه في الليلة البارحة

وفي هذا الشعر يغلب التفكير الفلسفي والارتفاع الى الصوفية . وقد لا تقع في قصائد شعراء المهجر على عاطفة صادرة عن القلب الا في النادر القليل .

ويظهر ان شعراءنا الشبان أخذوا بهذه الروحانية فترسموها خطوة خطوة وامتزجوا بها روحاً وتفكيراً ، فأعرضوا عن الغزل الشائع (ولم يكن في هذا شيء من القلب ايضاً) ، وما هي الا ليلة وضحاها حتى صرنا نرى الصوفية الجبرانية تطفو على شعر الشباب في كثير من التعمل والاعنات . فلا بد من حشو كل قصيدة بامثال هذه الكلمات : « اصابع الفجر الوردية . الكهف المسحور . يستحم بالعطر والنور . جنية الغابات . وهلم جرا . » وكثيراً ما كان الشاعر يتغنى بحبيبته فتغلب الصوفية في اناشيده ... كأنه يعشق برأسه لا بقلبه ،

وكأنه يعشق بافكار غيره من الشعراء المتصوفين المتشائمين .

وفيما الشعراء يضطربون في هـذه المحنة سقط بين يدي اديب مظهر مجموعـة من الشعر للشاعر الفرنسي البير سامان



اديب مظهر

فالتهمها ، وكثيراً ما كنت أسمعه يردد هـذا البيت :

Le séraphin des soirs passe le long des brises .

ويقصد الشاعر بهذه الصورة أن نسمات المساء نقية طاهرة كأن الملائكة تمرّ عليها .

وبعد قليل طلع علينا اديب بقصيدته الرمزية « النسيم الاسود » وأتبعها بطائفة مثلها . ولم يكن ليخطر في بال



اميل زولا

احد ان هذه القصائد ستكون فاتحة عهد مشؤوم في الشعر

الرمزي · سوى ان قصائد اديب مظهر لم تفعل فعلها الا بعد مرور سنوات · ففي العام ١٩٢٣ تفشى هـذا الوباء في الناشئة فاتجهت من الشعر الروحاني الصوفي الى الشعر الرمزي كما فهمته او بالاحرى الى الجانب المريض من هذا الادب · وكما سقط البير سامان بين يدي اديب مظهر سقط بول فاليري بين ايديها فتأثرته الى حد الاسراف وراحت تدور في زوبعته حتى داخت · وبين ليلة وضحاها حلّ « ارتعاش المنى » و « الفضاء المخضب » و « اللألاء المغرورق » و « الزورق الغائم » محل « الكهف المسحور » و « جنية الغابات » و « اصابع الفجر الوردية ··· » وتحول النقد من البحث في قيم الادباء وما تنتجه اقلامهم الى البحث في المدارس والنظريات · واصبح قصارى ما يطمح اليه شاعر من شعراء تلك الناشئة أن ينسب الى بول فاليري أو الى مدرسة رنبو أو فرلين · ويكفيه ان يقتحم بعض الكليشهات اللفظية ويخرج على بعض القواعد ليحظى بهذا الانتساب ·

على أن جوّنا الادبي انقى من أن يتفاقم فيه مثل هذا الداء ، فما لبث الادباء ان عقبوا الى تقاليدهم على مثال ما حلّ في فرنسا ، فالحقيقة حقيقة في كل مكان ·

لاربعين سنة خلت نشبت حرب ادبية هائلة بين شمالي المروج المزهرة التي يرويها السين في فرنسا وجنوبيها ، وقد سُميت بحرب الضفتين ، فكان ادباء الحي اللاتيني ومونبارناس (أي ادباء الضفة اليسرى) يهاجمون ادباء جادة موغارتر في الضفة اليمنى . وكان لكل من الفريقين صحفه ومجلاته ومنابره ومقاهيه وخماراته . وظلت هذه الحرب مشتعلة حتى أقبلت الحرب الكبرى فآخت بين الضفتين وأجهزت على ما بقي من الطفيليات العالقة بجسم الادب . ذلك ان للادب ، أشعراً كان أم نثراً ، رسالة انسانية عظمى منوطة بضمير الاديب ، أشاعراً كان أم ناثراً .

والواقع ان من فضائل الاحداث الكبرى رفع الاديب الى مستوى هذه الاحداث . ومن الخرق فصل الشاعر عن المجتمع ، فهو ملتقى منازع البشر والوتر الاعظم الذي تنقر عليه أحاسيس الناس ومطامحهم . فلما تفاقم أمر هذه الحرب وانعقد حَمها في الاجفان ، وويلاتها في الارواح ، وعبرها في العقول والبصائر ، رأى الشعراء أنفسهم تجاه ملحمة أين منها تلك الاصوات المضعوفة وذلك الزخرف المدخول وتلك المبهمات المدغدِغة يعتمدونها في التعبير عن آلام الحياة واشجانها

وعن الصلة الحميمة القائمة بين العالم الروحي والعالم المادي ، فانقشعت الظلمات وتبدد الضباب وسكت الا الفن



غي ده موباسان

المتصل بالحياة ، الا الحقيقة الابدية .

وأية عبقرية أو أية موهبة شعرية ترضى ان تتقاص في اساليب مدرسة كائنة ما كانت ؟ فهنري ده رينيه الذي كان في طليعة المتحمسين للشعر الرمزي ما لبث أن سلك سبيل

التطور الرشيد فاستفاد من الشعر البارناسي بل من الشعر الرومنطيقي واذا هو على رأس شعراء فرنسا . ذلك ان نورانية



ميخائيل نعيمة

هذا الشاعر أبت عليه الا ان يسلك طريق الشعر الصحيح فلم

يفصل الفن عن الحياة .

ومجمل القول ان الادب العربي الذي تأثر في مجموعه بالاحداث الفكرية التي نفخت فرنسا في بوقها ، واهمها الثورة الكبرى التي كان نابليون اعظم الناشرين لمبادئها كما كان أعظم المذيعين للادب الفرنسي بوجه عام بتسهيله السبيل لذلك الاحتكاك الجديد بين الشرق والغرب — ان الادب العربي يستمد اليوم غذاءه من تربته وجوه وله في نهضته المباركة هذه عدة العلم وعدة الثقة بالنفس .



